

حوادث العراق في سنة ١٩٤١

كما ترويها وزارة الحرب البريطانية والمستر ونستن تشرشل في مذكراته

نقله الى العربية

جعفر خياط

١٣٧٣ - ١٩٥٤



حوادث

العراق في سنة ١٩٤١

Gt. Brit. Central Office of information

حوادث العراق في سنة ١٩٤١

كما ترويها وزارة الحرب البريطانية والمستر ونستن تشرشل في مذكراته

Hawādith al-ʿIrāq

نقلها الى العربية

جعفر خياط

١٩٥٤ — ١٣٧٣

مطابع دار الكشاف - بيروت

مقدمة المترجم

تعد الحوادث التي وقعت في العراق في شهري نيسان ومايس من عام ١٩٤١ من أخطر الحوادث واشدها تأثيراً على كيان الدولة العراقية منذ تكوينها حتى اليوم. فقد كانت هزةً عنيفة ترنحت بتأثيرها هذه الدولة بشكلها الحاضر وكادت ان تودي بها . ولو امعنا النظر في تاريخ العراق السياسي الحديث قليلاً لوجدنا ان هذه الهزة ـ او الثورة ـ كانت حلقة واحدة من سلسلة الحوادث التي كانت ولا تزال تقع في هذا البلد الذي يكتنفه الشذوذ في وضعه العام من نواح كثيرة . حيث يلاحظ المتتبع ان التيارات السياسية التي اخذت تتقاذف سفينة البلاد منذ ان رحل عنها ربانها وباني كيانها المغفور له الملك فيصل الأول ـ طيب الله ثراه ـ كان منشؤها على الأكثر المناورات السياسية التي كان يلجأ اليها ساسة البلاد الطموحون للاستيلاء على الحكم والاستئثار به . وقد ادى ذلك بطبيعة الحال الى حدوث ثورات عشائرية وحركات عنيفة عديدة استغلتها بعض الكتل السياسية الموجودة في بغداد أسوأ استغلال ، فنتج عن ذلك سقوط عدة وزارات ومجيء غيرها . ثم أقحم الجيش في السياسة لأول مرة، فوقع في يوم ٢٩ تشرين الأول ١٩٣٦ ما يسمى بانقلاب بكر صدقي الذي تقلد رئاسة أركان الجيش بعد ان نجح في انقلابه . ولم يخل عهد هذه الوزارة التي جاءت باسم الأصلاح من حركات وثورات عشائرية أخرى استعملت الحكومة في قمعها مختلف وسائل القسوة والعنف مما لا يمكن

ان يصدر بعضه من حكومة مدنية تعيش في هذا العصر. وأعقب هذا الانقلاب حصول انقلابات وتدخلات عسكرية أخرى كان أولها قتل بكر صدقي نفسه وزوال كابوس حكمه العسكري. وطفق رجال السياسة يستغلون من اجل أطماعهم، في هذه المرة، الجيش بدلا من العشائر حتى وقعت الحرب العالمية الأخيرة وتأثر العراق بها تأثراً غير يسير بمقتضى موقعه الستراتيجي المهم. وما حل عام ١٩٤١ حتى أخذت تبين في الافق نذر عاصفة هوجاء تهب على البلاد فتعصف بكيانها الذي آلت اليه منذ وفاة الملك غازي الأول في ليلة ٤ نيسان من سنة ١٩٣٩ على الأخص.

وقد وقعت الكارثة و بلغ فيها تدخل الجيش في السياسة أوجه، حيث اصطدم بالمقام الأعلى في البلاد، ومن ثم اصطدم بالحليفة بريطانيا العظمى وجيوشها التي نزلت في البصرة للمحافظة على مصالحها ولانقاذ مطاراتها في الحبانية مما هو مدون في هذا الكتيب على لسان وزارة الحرب البريطانية. وكانت النتيجة ان عاد الاحتلال البريطاني الى البلاد خلال الحرب برغم محافظته على شكل الحكومة وهيكلها العام، وازداد نفوذ الانكليز في التأثير على سير الدولة وتدبير شؤونها ازدياداً ملحوظاً بعد ان كان قد تقلص تقلصاً غير يسير من قبل.

ولو أردنا سرد الاسباب التي كانت تؤدي الى وقوع الحوادث التي اشرت اليها حتى الآن لوجدنا بينها سبباً اساسياً كان ولا يزال وجوده عاملاً قوياً في وقوع مثل هذه الهزات، وهو انعدام وجود الحياة الدستورية الأصيلة في البلاد، وضعف البرلمان في سيطرته على الوضع السياسي فيها. حيث ان الدولة بعد ان فقدت باني كيانها الملك فيصل الأول ُبعَيد دخول العراق عصبة الامم وتخلصها من الانتداب المقيت كانت في مقتبل حياتها الدستورية، أو لم تكن في وضع دستوري أصيل، ينظم

كيفية مجيء الوزارات الى الحكم وابتعادها عنه كما يحدث في البلاد العريقة في دستوريتها . فلم تكن هناك أحزاب سياسية حقيقية تعتنق مبادىء خاصة تسعى من أجلها ، ولم تكن الطريقة التي تنتخب بموجبها المجالس النيابية طريقة صحيحة يفسح فيها المجال للشعب بانتخاب نوابه انتخاباً حراً يؤول الى مجيء نواب يشعرون بانهم يمثلون الامة تمثيلاً حقيقياً لا فضل فيه عليهم للحكومة أو اية جهة من الجهات التي لها تأثيرها المعلوم . كما كانت الصحافة الموجودة في البلاد، ولا تزال، بعيدة كل البعد عن ان تكون صحافة حقيقية تشعر بحريتها وكرامتها ، او أن توجهها فئة تتوفر فيها مزايا الصحفيين اللائقين لهذه المهنة الخطيرة التي لها تأثير لا يستهان به على الوضع الدستوري في البلاد .

وعلى هذا فقد كانت معظم الوزارات تتألف في جو ٍ غير برلماني من فئة معينة اتخذت السياسة حرفة لها واخذت تتقرب من هذه الجهة او تلك لضمان المجيء الى الحكم من دون قاعدة او مبدأ معين . وبات الحكم منحصراً باناس معدودين ينتمون لهذه الشخصية او تلك ، او يحظون برضا هذه الجهة او غيرها . وعندما كانت الأحوال لا تؤاتي بعض الساسة الطموحين أحياناً ، كانت تلتجىء الى الاستعانة بالعشائر او الجيش او غير ذلك فتحيك الدسائس والمناورات لتحقق مطامحها من دون التفات لمصلحة عامة او مبادىء معينة تتقيد بها .

ولا شك ان هناك عوامل واسباباً اخرى كثيرة لا يسمح المجال بذكرها او الالماع اليها . لكننا لا بد ان نشير في هذا المجال الى ان النفوذ الاجنبي المخيم على البلاد كان يروق له بلا ريب دوام هذه الحال طالما كانت مصالحه مؤمنة ومطامعه مضمونة . وقد نشأت منذ ان وضعت الحرب العالمية الاخيرة اوزارها عوامل كثيرة اخرى كان لها أثرها البيّن في وقوع الهزات والوثبات والانتفاضات في البلاد مما

سوف لا نتطرق اليه هنا بالنظر لضيق المجال . وحسبنا ان نعدد قسماً منها فنذكر انتشار الوعي العام بين طبقات السكان التي اخذت تشعر بما تقاسيه من تأثير الفقر والجهل والمرض فيها ، واخفاق الحكومات المتعاقبة في معالجة هذه الآفات الفتاكة، وقسوة التيارات السياسية العالمية على العراق وسائر البلاد العربية المتمثلة في نكبة فلسطين الدامية ، وما اصاب الشعوب العربية من خيبة امل بسببها ، والدس المنتظم الذي اخذت تدسه مؤسسة الشيوعية العالمية في العراق وسائر البلاد العربية والشرقية.

اما تحليل حوادث العراق الواقعة في سنة ١٩٤١ التي يبحث فيها هذا الكتيب والحكم عليها حكماً تاريخياً منصفاً فاني أتركه للمؤرخين، لان أوان ذلك لم يحن بعد على ما اعتقد . الا انني وجدت خلال مطالعاتي عن الموضوع ان وزارة الحرب البريطانية كانت قد نشرت قبل عدة سنوات كتاباً(١) خاصاً عن الاعمال التي قامت بها قيادة الجيش البريطاني في العراق وأيران (پايفورس) المتشكلة في سنة ١٩٤١ - ١٩٤٦ ، فتطرقت في الفصول الرابع والخامس والسادس والسابع والثامن منه الى حوادث العراق في ١٩٤١ . وبالنظر لأهمية هذه الفصول ، وصفتها الرسمية ، لتاريخ العراق السياسي الحديث وجدت من المفيد للعراقيين ان يطلعوا على ما جاء فيها فأقدمت على ترجمتها والتعليق عليها زيادة في الأيضاح . كما انني وجدت من المناسب ان أضيف الى هذه الفصول فصلاً آخر - هو الفصل السادس من هذا الكتيب - مستلاً من مذكرات المستر ونستون تشرشل رئيس الوزارة البريطانية في أيام الحرب وفي هذه الايام لانه يتطرق فيه باسلوبه الخاص الى هذه الحوادث و يورد مستندات ومخابرات رسمية مهمة

---

(١) Paiforce — The Official Story of the Persia and Irap Command 1941 — 46 .
His Majesty's Stationery Office.

تلقي ضوءاً كافياً على كيفية وقوعها .

ولا ريب ان القارىء الكريم سيجد عند قراءة هذا الكتيب ان الحوادث قد سردت سرداً تسود فيه وجهة النظر البريطانية وحدها . واني لأود ان انهي هذه المقدمة دون ان أسجل استغرابي من اللهجة التهكمية ، الممزوجة بالتبجح والتشمت والتحامل ، التي يمكن ان يستشفها القارىء من بين سطور هذه الفصول . ولا غرو فهذا أمر لا يؤمل صدوره في كتاب رسمي تصدره وزارة مهمة من وزارات احدى الدول المعظمة الا لغرض الدعاية . لكن الظاهر ان كاتب الكتاب قد فقد شيئاً من اتزانه وبروده المعروف وجودهما عند الأنكليز ، وقد يكون سبب ذلك انه كان أحد الذين حجزوا في ايام الحركات ، موضوعة البحث ، فعوملوا معاملة غير مناسبة.

هذا واني أرجو ان أكون قد وفقت للقيام بشيء من الخدمة في هذا الشأن ، ومن الله العون والتوفيق .

بغداد { جماد الآخر ١٣٧٣
شباط ١٩٥٤

جعفر خياط

الفصل الاول

بعـــد ١٩١٩
بريطانيا والانتداب على العراق

•

تعد قصة العراق بين الحربين العالميتين ، في فصولها الاولى ، جزءاً لا يتجزأ من تاريخ البلاد العربية جمعاء ، وهي قصة معقدة للمناورات الديبلوماسية ، والمثالية والطمع ، والصبر والقلق ، والتعصب والتعقل . وتشتمل هذه القصة على فترة قصيرة الأمد من القتال المفجع الذي خمدت أصواته الصارّة خموداً تدريجياً ولفها الصمت بجلبابه . فخفت زحمة الطباخين الذين كانوا يتسابقون لتحريك المرقة في قدرها لانضاج الطبخة ، وتُرك العراقيون لرسم مستقبلهم السياسي الخاص بهم مع بريطانيا العظمى . وكان الاستقلال هو الهدف المنشود ، فأوصلتهم اليه بالتدريج سلسلة من المعاهدات . ولم يكن التقدم الحاصل في هذا الشأن شيئاً بسيطاً أو تقدماً سهلاً .

فقد أصبح للعراق في ١٩١٩ كيان جديد يتألف من ولايات (١) تركيـة سابقة ثلاث منضمة بعضهـا الى بعض . وكانت تقطن في داخل حدوده أقليات عنصرية مهمة ، وقبائل بدوية لم تخضع خضوعاً فعالاً في يومٍ من الأيام لاية حكومة من الحـكومات ، كما كان يضم بالأضافة الى عدة طوائف دينية صغيرة فرعي الديانة

(١) ولايات بغداد والبصرة والموصل .

الأسلامية الرئيسين ، السنة والشيعة اللذين يختلفان اختلافاً مفعماً بالتعصب (١) احياناً ، كما كان يختلف الروم الكاثوليك مع البروتستانت في انكلترا في عهد أسرة « تودر » المالكة . وكانت البلاد من الناحية الاقتصادية معتلة الصحة ، شاكية من نقمة موقعها الجغرافي وحالة الأحوال الجوية فيها ، ومن ادارة مفككة ومواصلات بدائية . وعلى هذا فقد كان امر تأسيس دولة يمكنها ان تحافظ على كيانها ومكانتها بين الأمم الناضجة نضجاً سياسياً ، على مثل هذه الاسس الواهية ، يحتاج الى رجال دولة وموظمين مدنيين من أعلى طراز ، أي الى رجال مدربين على تقاليد الحكومة الصالحة وأداريين ذوي خبرة وفنيين مهرة . ولم يكن الذنب ذنب العراقيين ، وهم في الغالب أناس يحيون حياة الرعاة في ظل الحكم الأجنبي الدائم ، في عدم توفر مجموعة من مثل هؤلاء الرجال الخبيرين بين عشية وضحاها .

وعلى هذا فقد ترتب على أمة أخرى ، بصورة موقتة ، ان تقدم للعراق قسماً كبيراً ممن حصلت عندهم هذه الخبرة ، فأناطت عصبة الامم هذه المهمة بعهدة بريطانيا . وليس هناك شخص عنده شيء من الذكاء يمكنه ان يدعي ان بريطانيا قبلت الاضطلاع بهذا الواجب لمجرد الغيرية والاحسان . حيث اننا ذكرنا من قبل ان بريطانيا لها في الشرق الأوسط مصلحة واحدة قائمة على الدوام تفوق جميع المصالح ، ومبدأ واحد من مبادىء سياستها ضحت من أجله الكثير من الأرواح في ١٩١٤ ـ ١٩١٨ : وهو مبدأ عدم أمكان السماح لاية دولة معادية بان تهدد مواصلاتها الامبراطورية ، كما ان لها بالأضافة الى ذلك مصالح اقتصادية جسيمة جداً أكثرها أهميةً وحيويةً حقول النفط في كركوك . وقد اعترف بهذه المصالح

---

(١) يلاحظ في كتابات الانكليز الرسمية وغير الرسمية انهم يضربون على هذا الوتر باستمرار ، وليس القصد من ذلك بخاف على احد . (المترجم)

اعترافاً عاماً الجانب العراقي (الذي اصبح يتقاضى قسماً كبيراً من وارداته من العوائد التي تدفع عن أنتاج النفط) ، في حين ان المواطنين العراقيين البارزين قد صرحوا ان النفع الذي يصيب الأمتين في هذا الشأن هو نفع متساوٍ عادل .

ولا شك ان التقدم الذي حصل في هذه التجربة السياسية الفريدة في بابها كان يعتمد في الدرجة الأولى على العراقيين أنفسهم . فقد اكتشفوا في عاهلهم الأول فيصل بن الحسين عميد الاسرة الهاشمية رجلاً يتحلى بمواهب سامية الذرى من قوة الشخصية والحنكة السياسية ، كما برهن رجال الدولة والوزراء من أمثال نوري باشا السعيد على ان الجمع بين الحصافة السياسية والشعور السامي بالواجب العام يمكن ان يظهر في الأمم الحديثة كما يظهر في الامم العريقة في القدم . وفوق ذلك كله فقد أظهر القسم الاعظم من العراقيين ، برغم عدم تمرسهم في المسؤولية السياسية ، حرصاً كبيراً على تقدم بلادهم . فقد كانوا في الدرجة الأولى أناساً قبائليين ، لا يفقهون سوى قوة النظام القبائلي . وفي نطاق عالمهم القبائلي هذا كانوا يتعاملون تعاملاً شريفاً . واذا كان شعورهم بالقيم الاجتماعية لم يكن شعوراً واسع الافق والمدى فانه مع ذلك شعور واضح غير معقد : حيث انهم كانوا معتادين على امتلاك الحيوانات وتربيتها ، وعلى علمٍ بان هذه الحيوانات بحاجة الى المرعى ، وان شؤون الغذاء والسكن لها المقام الأعلى في كل ما يضعه المرء في حسابه بالنسبة لزخارف العيش الخالية من الذوق . كما انهم كانوا يفهمون معنى الحرية اكثر من كثير من الأوربيين الذين كان قد توقف فهمهم لها . وعلى هذا فقد كانت المادة الخام متوفرة لتكوين أمة جديدة منهم .

ولقد اسعفهم الحظ بوجه عام بطبقة من البريطانيين الرواد تهيأت للخدمة في بلادهم . فقد أصبح ما يشبه القانون الطبيعي قبل الحرب العالمية الاولى بان الديار العربية لا بد لها ان تنجب رجالاً مرموقين من الانكليز : رجالاً على درجة من

الجلد والتحمل بحيث يستطيعون السفر والمعيشة من دون ان تتوفر لهم وسائل الراحة الغربية ، وعلى مقدار كافٍ من الثقافة الاوروبية بحيث يستطيعون ان يروا الحضارة الغربية عنهم بمنظار يقدر الامور حق قدرها وان يتفهموا الفلسفات الاجنبية تفهماً غير يسير ، رجالا كان في وسعهم ان يشاركوا العشائر مشاركة عاطفية في رجعيتهم العشائرية من دون ان يغرب عن بالهم معنى التقدم ، وان يعيشوا عيشة عربية مع المحافظة على عقليتهم الخاصة وطرق تفكيرهم فان اسماء مثل اسماء ليجمن وشكسبير وآرنولد ويلسن ولورنس وجويس ونيوكومب وستورز(١) هي غيض من فيض

---

(١) كان الكرنل جي. أي. ليجمن من موظفي الاستخبارات البريطانية التابعين للدائرة السياسية في الهند ، وقد زار العراق عدة مرات قبل الحرب العالمية الاولى وألم بشؤون القبائل العربية إلماماً تاماً . ثم عين بعد احتلال الانكليز للعراق أول حاكم سياسي في منطقة الموصل بعد ان كان يتولى شؤون الجزيرة والقبائل المنتشرة فيها . وقد كان شرس الطباع جسوراً غير هياب فأدى به ذلك الى ان يقوم بقتله المرحوم الشيخ ضاري المحمود شيخ قبيلة زوبع في خان النقطة ، بين بغداد والفلوجة ، وذلك في ١٢ آب ١٩٢٠ أي في أيام نشوب الثورة العراقية الكبرى .

اما الكابتن دبليو أيتش. آي. شكسبير فقد كان « وكيلا سياسياً » في الكويت قبل الحرب العالمية الاولى وتابعاً للدائرة السياسية في الهند . وقد تمكن خلال اشتغاله هناك ان يتعلم العربية ويلم إلماماً تاماً بالشؤون العربية . فاتصل بحكم وظيفته بالملك عبدالعزيز آل سعود الذي كان قد استعاد مملكة آبائه في الرياض من آل الرشيد . وفي شتاء ١٩١٤ — ١٩١٥ قصد نجداً للمرة الثانية وانضم الى ابن سعود الذي كان يزحف نحو الشمال لصد هجمات ابن الرشيد الذي كان يحظى بتأييد الاتراك له . وفي معركة جرت بين الفريقين جرح الكابتن شكسبير ثم قضى نحبه متأثراً بجراحه .

ويعد آرنولد ويلسن من أبرز الشخصيات البريطانية التي اشتغلت مع السر بيرسي كوكس في العراق عندما جاء مع الحملة البريطانيه وأسس الدائرة السياسية فيه . وقد بقي السر آرنولد ويلسن مدة من الزمن وكيلا للحاكم الملكي العام في العراق أيام « الادارة الملكية » ، وكان من ابرز المناوئين لتأسيس حكم وطني فيه . فادت تصرفاته في هذا الشأن الى اندلاع نيران الثورة العراقية التي نقل على أثرها من العراق وعاد بعده السر بيرسي كوكس لتأسيس الحكومة الموقتة في العراق برآسة النقيب .

اما لورنس فهو غني عن التعريف بالنسبة لما اشتهر به عندما كان يساعد العرب في الثورة العربية

الاسماء الكثيرة التي سيخلد ذكرها في العراق على الدوام . وتتفوق حتى على هـذه الشخصيات المرموقة شخصية السير برسي كوكس الفذة ، الذي كان اول مندوب سام طبق نظام الانتداب ومن القلائل الذين يعرفون العراقيين معرفة تامة ، ويتحلون بمعين لا ينضب من الصبر والعطف والديبلوماسيـة التي لا تـكل . والحزم الذي لا يتزعزع . ذلك الذي ظل العراقيون يسمون ابناءهم باسمه (كوكز) حتى يومنا هذا . فرجال مثل هؤلاء الرجال ، ورثوا تقاليد معينة في الحـكم والادارة ، قاموا بالبداهة بالدور المزدوج الذي فرض عليهم في خدمة بلادهم وخدمة العراق . وعلى اكتاف رجال مثل اولئك الرجال ، والصداقات التي اوجدوها ، شيدت اركان المملـكة الجديدة .

وليس من الممكن الا في القصص الخيالية ان يكون كل فرد من الافراد متصفاً بالحـكمة والتعقل ، وأهلاً للمناصب ، وصالحاً للعمل من دون ان يتوخى غير المصلحة العامة . وعندما يبلغ الانسان الرشد في نموه لا بد ان يجابه وقتاً عصيباً تعتوره فيـه المصاعب ، ويصح هذا على الأمم ايضاً عندما تبلغ رشدها . فقد ظهر في هذه المملكة الفتية (كما في غيرها) رجال كانوا يريدون ان يقطعوا المئة سنة بخطوة واحـدة ، وآخرون (كما في غيرها) يقولون ان الاساليب القديمة فيها الكفاية لهم . ولم يـكن جميع الخبراء الذين انتدبوا لمشورة الحـكومة الجديدة مثل كوكس أو المس غيرترود بيل.

الكبرى التي أضرمها في الحجاز المغفور له الملك حسين وأنجاله . وممن كان في معيته من الأنكليز ، جويس ونيوكومب ، وقد جاء الأخير الى العراق بعد تأسيس الحـكم الوطني فيه فعين اول مستشار لوزارة الدفاع .

وكان السر رونالد ستورز من رجال « المكتب العربي » للاستخبارات البريطانية في القاهرة في ايام الحرب العالمية الاولى . وقد اشتغل بعد ذلك حاكماً عاماً في فلسطين لعدة سنين ثم في قبرص ، وفي ايامه هناك نفى الانكليز المغفور له الملك حسين الى قبرص — المترجم .

ولقـد تكونت الدولة الجديدة وارتقت ، كما تكونت سائر الدول ، عن طريق الاتفاقيات المتدرجة من دون ان يخلو الأمر من المناقشة والجدل أو من المناورات الضيقة الأفق أو خيبة الأمل ، ولا من فترات اشتدت فيها الحدة والشراسة. ومع ذلك فقد تكونت ولما كان أصدقاء العراق على علم بجميع العراقيل التي قد تنشأ ، فقد تمادوا بوثوقهم بان تجربة الاستقلال العظيمة هذه ستنجح ، حتى انهم كانوا مستعدين ان يدفعوا الثمن لذلك غالياً من صبرهم وكدهم ليضمنوا هـذا النجاح . و بذلك لم تكن حوادث ١٩٤١ لهؤلاء البناة كارثة بل فترة كانت مفعمة بالمحن القاسية .

الفصل الثاني

تمهيدات الألمان : ١٩٣٣ - ١٩٤١

•

كنا قد اشرنا فيما سبق الى نوايا هتلر تجاه العراق ، ولم يحسب احد ان المانيا ستنظر الى تقدم العراق بصداقته مع بريطانيا نظرة عطف او نظرةخالية من المصلحة. فقد أخذت قبل نشوب الحرب بعدة سنين تبذر بذورها في جنة عدن هذه ، التي لم تكن امورها قد استقرت بعد ، ملتجئة الى طرائق وأساليب كانت تجد بها لذةً واعتزازاً خاصين .

وكان التسرب التجاري طريقة من هذه الطرائق البارعة . فان النازيين منذ ان بدأوا بسياستهم هذه كانت قد تكونت عندهم براعةً خاصة في التلاعب بالعملة ، وبهذه الوسيلة استطاعت شركة من الشركات الألمانية تدعى « هافارا » Haavara ان تيسر للتجار العراقيين عملاً تجارياً يعود عليهم بالربح الوفير . غير انه مما يلفت النظر ان رجال القبائل لم تخف عليهم هذه العروض المريبة والألاعيب . لكن قسماً كبيراً من الاعمال التجارية في المدن كان يقوم به اناس مهاجرون كانوا معرضين على الأخص لأغراء الربح العاجل . فكانت تلك لعبةً سهلة ، حيث تضاعفت أعمال

الالمان التجارية بين سنتي ١٩٣٥ و ١٩٣٨ . ولم تعد ترسل اية بضاعة ألمانيـة الى العراق من دون ان يصاحبها سيل من الدعاية . وكانت الدعاية في الوقت نفسه تبث بطرائق اخرى . فقد تشكلت في العراق مديرية للدعاية الألمانية وجهزت بمالٍ يكفي للتعامل مع الصحف المحلية . ثم أسست في برلين محطات اذاعة قوية تذيع باللغات المحلية فتسمع الكثيرين الذين لا يعرفون القراءة بأجهزة للراديو أخذ التجار الالمـان يبيعونها بمبلغ لا يزيد على الاربعين شلناً . وقد شجع العرب على الاعتقاد بان الالمان يهتمون اهتماماً انسانياً بحركة الوحدة العربية ، بينما قيل للاقليات العنصرية الموجودة في البلاد بان قضاياها عزيزة على الالمان وانهم يعيرونها التفاتاً خاصاً . وبذا فقـد كان وضع الالمان كوضع ذلك العم الاعزب الذي امتلأت جيوبه بالدراهم . وكان الدكتور غروبا الوزير الالماني ، رجلاً موهوباً ذا جاذبية شخصية عظيمة ، كما كان سخياً في ضيافته . وقد دُعي الى المانيا مدير المعارف العراقي فأقيمت له الولائم هناك. كما دُعي التجار والاطباء وغيرهم ، فأقيمت لهم الولائم بسخاء ، ثم زودوا بمعلومات تلفت النظر عما انجزته حكومة الرايخ الثالث ، ولم يدفعوا لقاء ذلك كلـه شيئاً . يضاف الى ذلك ان الالمـان كانوا يرعون ساحة الالعاب الفخمة في بغداد رعايـة بالغة السخاء .

ولم يهمل الاطفال ايضاً . فقد كان الالمان يبذلون جهوداً مضنية ليبدوا عطفاً خاصاً على الشباب العراقي . فتشكلت في المدارس الحكومية جمعية للشباب تـدعى « الفتوة » تيمناً باسم فريق من الفرسان العرب كان يتدرب على الفروسية في القرن الثاني عشر . وجعلت بزة الفتوة تشابه البزة العسكرية ، كما كان منهاجها يتضمن عدداً من المثل العليا ومقداراً غير يسير من التدريب العسكري . وقد أعجب الجميع بهذه الحركة بحيث ان طلاب مدرسة المبشرين الامريكان تشجعوا فانضموا اليها

مدة من الزمن . وسرعان ما منح ممثلو هذه الجمعية التسهيلات اللازمة للقيام برحلة الى المانيا ليشاهدوا بأم عينهم ، تحت الاشراف الحكومي الدقيق ، كيفية تدريب وتنظيم شباب تلك الامة الحية المتقدمة في مضمار المدنية . فكان لتلك السفرة وقع عظيم في نفوسهم (فسحب طلاب مدرسة المبشرين الامريكان من عضوية الفتوة بسرعة) .وازداد الحديث عن مزايا الالمان وفضائلهم،ولا غرو فان اناساً كالعراقيين لا تتيسر لهم وسائل اللهو والتسلية بكثرة لا بد ان يقضوا شيئاً كثيراً من وقتهم في الحديث والمناقشة . ولا يستبعد عنهم الدس والتآمر أيضاً . ففي أسواق القرى وفي اسواق المدن المزدحمة ، وفي المقاهي الواسعة التي يجلس فيها العرب المتقدمون في السن عدة ساعات على المقاعد الخشبية يومياً ، اخذ الناس يتقولون بان الالمان سيكون لهم المستقبل حتماً ، وانهم هم الذين يشاركون العرب في أحاسيسهم ويشاطرونهم أمانيهم . ألم يصرحوا هم بذلك ، ألم يكونوا أشد سخاءً في معاضدة جمعية الهداية الاسلامية ، ونادي المثنى ، وجمعية الدفاع عن فلسطين ؟ الا يمكن للعراق بارشاد مثل هؤلاء الانسانيين التقدميين الذين لا مصلحة لهم ان يخرج عن الطريق البطيء الممل الذي يسير فيه ليصبح امة كاملة بين الامم ، الا يمكن له ان يحصل على الثروة والقوة والاستقلال التام بوثبة واحدة ؟

غير ان الجيش العراقي هو الذي كان الألمان يعيرونه كل التفاتهم وجميع اهتمامهم ، وعلى الاخص ضباطه الكبار دون الصغار . ولم يكن في وسع الالمان ان يفعلوا اكثر مما يجب لهؤلاء . فقد وجدوا في المانيا عندما استضيف الضباط العراقيون ضيافة كريمة بان آراء اولئك الضباط في المواضيع العسكرية قد قدرت تقديراً عالياً من قبل ضباط الجيش الالماني ذوي الخبرة . فساد الشعور بحسن التزامل بين الفريقين . وفي الحفلات التي كانت تقام للضباط الشباب في بغداد لم يجد هؤلاء الضباط الدكتور

غروبا الظريف والدكتور يوردن الاخصائي العالمي المعروف بالعاديات فقط ، بل انهم أيضاً كانوا يجدون البنات (١) الألمانيات . فان البنات الألمانيات كن جميعهن يظهرن في هذه الحفلات وهن جميلات مرحات ، ولم تكن أيـّة واحدة منهن تخلو من أعجاب خاص بالضباط العراقيين . ونادراً ما كانت هـذه النضارة التي يتعرض لها الضباط الشبان في أي جيش من الجيوش تقابل بعين مغمضة تماماً .

اما الجيش البريطاني فلا يعبأ بالسياسة ، كما ان البريطانيين ميالون الى ان ينسوا بان الأحوال التي يألفونها ليس من الضروري ان تكون موجودة في جميع انحاء العالم حيث ان البلاد التي ينعدم فيها التنوع الذهني الشديد وهي في دور تكوينها لا بد ان تجد في السياسة غذاءها العقلي الرئيسي . فالسطوة والشخصيات والخصومات هي العملة الدارجة التي تتداولها الافواه في زوايا الشوارع فيجمعها الرعاة في القرى ويحملونها معهم الى البادية في تجوالهم . وليس من المنتظر ان تسد أندية الضباط ومطاعمهم ابوابها في وجه الهواء المفعم بهذه الاحاديث . وقد ثبت تاريخياً أن القوة والسطوة هما اللتان يفكر فيها الجندي ، فقد كان القائد في العصور الغابرة يجتهد في تقوية جيشه وهدفه الوحيد ان يفرض سطوته على اعدائه وخصومه . وعندما لا يتيسر لوزراء الدولة الوقت او الفرصة لتوطيد مكانتهم توطيداً متيناً فان أحد الجنود الطموحين قد يخامره الشعور بان يتولى هو نفسه أو رجل آخر يعتمد عليه زمام الحكم لتمشية شؤون البلاد على الوجه المطلوب ، وقد يتصور في الحقيقة انه متى قام بانقلاب تدعمه القوة فقد يؤمن لبلاده منافع أوسع في مداها . وعندما يتجه في تفكيره هذا الاتجاه يبادر الى

---

(١) هذه تهمة لا اساس لها من الصحة . حيث يعلم الجميع ان الانكليز انفسهم هم الذين اخذوا يقيمون الحفلات والولائم ، ويدعون لها الناس من مختلف الطبقات بعد انتهاء الحوادث المشار اليها — المترجم

انتقاء الرجال الذين قد يؤيدونه من زملائه الضباط واصدقائه المدنيين ومن السياسيين الذين يخاصمون العهد القائم ، وقد يستنجد بأجنبي يبادله الود والصداقة . اما الضباط الصغار الذين يكدون من أجل التقدم والترفيع فقد يجدون الفرصة المناسبة لهم في قيام هذا الرجل الطموح .حيث ان الولاء لقائدهم قد ينيلهم مايطمحون اليه من المكافأة بأسرع من التقيد بالواجب الذي يتطلب الصبر والرسميات (وقد يعود ذلك بفائدة اكثر على الامة في النهاية كما يقولون) ولا يقصد بهذا ، ان الخيانة أو عدم الأخلاص للواجب، كانا شيئاً شائعاً في السنين الاولى التي مرت على الجيش العراقي . غير أن الدس والتآمر كانا موجودين على الدوام . وقد أفسح هـذا الدس للالمان المتعودين منذ مدة طويلة على فكرة استخدام الجيش سلاحاً سياسياً يستغلونه في شؤون البلاد الداخلية ، مجالاً مقبولاً لمثل هذا المجهود . فقد زحف الجنرال بكر صدقي في ١٩٣٦ فجأةً على بغداد عندما كان يشرف على اجراء المناورات وطلب تبديل الحكومة ، فقصفت المدينة بالقنابل وقتل (١) رئيس الوزراء . وليس هناك ما يدل على ان بكر صدقي كان يحظى بتأييد الالمان له ، وقد يكون من التصادف بانه كان متزوجاً من امرأة ألمانية ،غير ان الحادث كان يصعب اعتباره شيئاً لم يصادف ارتياحاً في برلين .

وقد ترتب على ألمانيا ان تجدّ ، جرياً على أساليبها المعهودة ، في اكتشاف أحد الساسة العراقيين ممن يمكن ان تدبر نشوب ثورة في البلاد بواسطته من وراء الستار عندما يحين الوقت .

---

(١) لم يقتل رئيس الوزراء في الانقلاب الذي قام به بكر صدقي وأعوانه وانما الذي قتل هو المرحوم جعفر باشا العسكري وزير الدفاع . اما رئيس الوزراء، المرحوم ياسين باشا الهاشمي ، فقد توفي في سوريا عندما كان ملتجئاً اليها على أثر الانقلاب المذكور ودفن في الشام — المترجم

وكانت الأسرة الـكيلانية من الأسر النبيلة في العراق ، وكانت لرجل يدعى رشيد عالي علاقة بها . ومع انه ليس هناك دليل يدل على محبة أفراد هذه الأسرة له فقد ساعدوه مساعدةً شريفة وسمحوا له بتبوء عدة مناصب لهـا علاقة باملاكهم الموروثة التي يديرونها لأغراض دينية . اما مقدار نجاح رشيد عالي في حياتهالسياسية من دون ان يحظى بمثل هذا التأييد فهو أمر يحتمل المناقشة والجدل . غير أنه لم يكن يعوزه شيء من القابلية والمقدرة . فقد كان على درجة من الدهاء والفعالية كما كان طموحاً بصورة غير اعتيادية . وقد أظهر في الشؤون المالية حذقاً وبراعة بحيث كان سبباً في ازدياد الواردات المتأتية من الاراضي الوقفية ، في حين ان مواهبه كانت قد لفتت اليها أنظار مراقبة متوقدة الذكاء مثل المس غيرترود بيل . فأصبـح عضواً في محكمة التمييز بفضل الاسم الذي يحمـله (الـكيلاني) على وجه الاحتمال ، ومن هناك أصاب تقدماً مطرداً في ميدان السياسة . كما أصبح في ١٩٣٣ رئيساً[١] للوزارة مدةً من الزمن . ومن الصعب على المرء ان يجزم فيما اذا كان رشيد يعد اكثر شغفاً بالمال منه بالسطوة السياسية ، اما بالنسبة لما قيل بان هاتين الناحيتين من نواحي نشاطه وفعاليته ترتبطان ارتباطاً غير مناسب فيحسن بنا ان نمنحه فيها منفعة الشك . وقد قال احد كبار الوطنيين العراقيين « بان رشيد عالي له ولع واحد فقط وهو التولع برشيد عالي نفسه » . وكان ما يحبه الالمان في السياسي الاجنبي ان يكون طموحاً .

---

(١) ألف رشيـــد عالي وزارته الأولى في ٢٠ مارت ١٩٣٣ من الأعضاء الآتية اسماؤهم : ياسين الهاشمي للمالية وحكمت سليمان للداخلية ومحمد زكي للعدلية ونوري السعيد للخارجية وجلال بابان للدفاع ورستم حيدر للاشغال والسيد عبد المهدي للمعارف . وفي زمن هذه الوزارة وقعت ثورة الآثوريين المشهورة في الشمال وانتقل المغفور له الملك فيصل الأول الى دار الخلود . وقـــد رفعت هذه الوزارة استقالتها في ٩ أيلول ١٩٣٣ حسب الأصول الدستورية الى المغفور له الملك غازي الأول — المترجم

وفي ايلول ١٩٣٩ كان الاساس الذي اسسه الالمان بدقةٍ واحكام قد انتهى العمل فيه . على ان اخراج الوزير الالماني وموظفيه من البلاد بعد ان اعلنت الحرب جعل امر تنظيم العمل الهدام اكثر صعوبةً ، لكن الوزير الايطالي الفاشيستي والوزير الياباني من بعده كانا سخيين في العمل الذي كانت تقوم به دوائرهما التي بقيت في البلاد ، وعلى هذا فقد ظل من الممكن اصدار الاوامر الى الجواسيس الالمان بواسطة الحقائب الديبلوماسية الآمنة .

ولاجل وضع الخطة بشكلها النهائي كان التوقيت الدقيق شيئاً أساسياً . ومراعاة للرأي العام العالمي (الذي كان النازيون ما زالوا يأخذونه بعين الاعتبار) كان من الضروري ان يسبق تعرض القوات الالمانية المسلحة للعراق حصول ثورة فيه . غير ان الفترة التي تفصل بين نشوب الثورة وتدخل الالمان فيها ينبغي ألا تكون فترة أطول مما يجب ، لان مساعدة الالمان لها اذا ما تأخرت اكثر من بضعة ايام يمكن ان تسنح الفرصة للحكومة الشرعية في العراق بسحق الثوار والقضاء على الثورة وبذلك تذهب الجهود الالمانية التي بذلت في الدس بعناية واتقان هباءً . وبكلمة مختصرة نقول ان الثورة كان ينبغي لها ان لا تبدأ قبل ان يحصل الالمان على قاعدة جوية تستطيع طائراتهم ان تشن منها هجماتها على العراق . وقد كانت سوريا ، الخاضعة للسيطرة الالمانية عن طريق حكومة فيشي الافرنسية ، تفي بهذا الغرض . غير انها كانت في اوائل ١٩٤١ بعيدة عن حدود السيطرة الالمانية بحيث ان تأسيس قاعدة جوية مناسبة هناك كان يعد شيئاً مستحيلاً من الناحية الفنية . وعلى هذا فقد كان الامر يتطلب وجود « حجارة عبور » تعبر منها الامدادات الى سوريا في طريقها الى العراق . فكان يبدو ان جزيرة كريت ـ التي وضعت الخطة للاستيلاء عليها

كجزء من الاندفاع الالماني نحو البلقان في ربيع ١٩٤١ ـ كانت بمقام حجارة العبور المطلوبة. وانها كانت تفي بالغرض المطلوب تماماً . ولا شك ان الطريق الى كريت كان عبر اليونان . و بالنظر للبطولة الفذة التي ابدتها اليونان أخفق الفاشيست الطليان في تنفيذ خطة المحور في هذا الشأن . غير انه لا البطولة التي كانت تبديها امة صغيرة مضغوط عليها ولا قواعد الاخلاق العالمية المألوفة كان يمكنها ان تقف امام قساوة الاسلحة الالمانية وعددها الهائل او قوتها النارية المحرقة .

وفي نيسان ١٩٤١ تمكن الالمان من الاستيلاء على اليونان، و بذلك بدأ اندفاع الالمان نحو السيطرة على العراق .

الفصل الثالث

تأزم الحـــالة في العراق

●

غير ان التوقيت مُني بالخطأ. وكان منشأ هذا الخطأ ان الالمان جابهوا في كريت وفي اليونان نفسها مقاومة عنيدة لم تكن في الحسبان. لكن الخطأ الذي حصل في التوقيت كان منشؤه في الدرجة الاولى ان حكومة العراق لم تكن غبية ولا عمياء.

فقد كان معروفاً لدى الحـكومة منذ مدة من الزمن ان خمسةً من الضباط الـكبار (الذين صار أربعة [1] منهم يعرفون باسم «المربع الذهبي») كانوا منهمكين بالتآمر والدس فتقرر وجوب نقلهم الى قيادات بعيـدة عن العاصمة حيث يُحال دون تمكنهم من احداث الضرر. فصدر الأمر بذلك في يوم ٢٥ مارت ١٩٤١. وعلى اثر ذلك واجه أحد المتآمرين وزير الدفاع وأخبره بصراحة بان أمر النقل سوف لا يُعبأ به، وانه يجب ان يُلغى، وان عدم الغائه ستكون عاقبته وخيمة [2].

---

(١) انهم العقداء صلاح الدين الصباغ وفهمي سعيد وكامل شبيب ومحمود سلمان — المترجم

(٢) جاء في خطاب صاحب السمو الأمير عبد الأله، الذي أذيع من دار الاذاعـة اللاسلكية للحكومة العراقية، في هذا الشأن ما يأتي :

« وبعد ان ألف طه الهاشمي وزارته عدت الى بغـداد وسارت الامور على صورة مرضية في الظاهر ولكن لم يلبث ان اتضح ان رشيد عالي كان لا يزال مستمراً في دسائسه مع اولئك الضباط مما اضطر طه الى نقل أحد الضباط — وهو العقيد كامل شبيب — الى خارج بغـداد. ولكن الضباط عارضوا هذا النقل وتمسكوا ببقائه في بغداد. ويظهر انهم اخافوا طه الهاشمي فأشار علي بمقابلتهم ومماشاتهم. »

فكان هذا تمرداً صريحاً . وقد وجد وزير الدفاع نفسه في وضع محرج للغاية . حيث لم يكن في وسع احد ان يحسب مقدار انتشار هذا الدس المفعم بالفتنة . فقد كان من المحتمل ان الخونة قد وضعوا الجيش بأسره في قبضة ايديهم ، واذا كان الامر كذلك فكيف تتمكن أمة من الأمم ان تحارب قواتها المسلحة نفسها ! فأخذ يتمهل ويداري الظروف . غير ان الامير عبد الأله ، الذي كان وصياً على ابن اخته الملك الطفل فيصل الثاني منذ ان توفي الملك غازي ، لم يكن في شك من امره . فقد كان يعرف ما هو معنى الثورة بالنسبة للبلاد . كما كان على علمٍ بان تسليم الحكومة الى جماعة من المغامرين معناه تسليم البلاد بيد الالمان . يضاف الى ذلك انه كان يدرك أيضاً نوع المعاملة التي سيلقاها العراق من الالمان . فقال كلمته واصر على عدم الاستسلام للمتمردين .

وقد كاد يدفع حياته ثمناً لهذه الوطنية الحقة . حيث ان الضباط الثائرين لم يكن من الممكن تخطيهم بقرار رجل واحد ، حتى ولو كان ذلك الرجل الوصيّ الشرعي الذي أقسموا يمين الولاء له . وكان الاغتيال وسيلة عريقة في القدم من وسائل السياسة الشرقية ، وقد قرروا بهدوء ان يلتجئوا اليه الآن . وكان من حسن حظ العراق ان الوصي قد حُذّر بنواياهم واقنع في آخر دقيقة بان ينجو بنفسه . ومن حسن الحظ ايضاً ان المفوضية الامريكية كانت مستعدة للعمل في صالح عاهل البلاد الشرعي بجرأة وتدبير . ففر الوصي في يوم ٢ نيسان هارباً الى الحبانية بمساعدةٍ منهم ، ومن هناك نقل بالطائرة الى البصرة حيث كان يأمل ان يجمع الموالين حوله ويؤلف وزارة جديدة (١) .

(١) جاء في خطاب صاحب السمو الامير عبد الاله ، المشار اليه من قبل ، في هـذا الشأن ما يأتي : « ... وحل نهار أول نيسان فكان هادئاً ايضـاً الا انني في المساء ايقظت من نومي قبيل

فأدى ذلك الى تورط رشيد عالي . حيث انه لابد قد أدرك بان الحركة وقعت قبل أوانها ، الا ان حزبه الجديد المسمى « حزب الشعب » [1] كان يعتمد على تأييد الضباط الثائرين له ، وهو اذا احجم عن اغتنام الفرصة التي يسروها له فان ذلك قد يؤدي الى انتهاء حياته السياسية . وعندما جوبه بوجه الخيار هذا لم يتردد في المسير معهم .

وكانت الوسيلة نشر ما زُعم بانه كتاب استقالة كان قد عنونه رئيس الوزراء الى الوصي على العرش . والحقيقة ان هذا الكتاب لم يرفع الى الوصي [2] قط . ثم

منتصف الليل بصورة غير اعتيادية وأخبرني الخادم بأن قوات عسكرية تحيط بالقصر من سائر الجهات ؛ وعلى أثر تحققي من ذلك غادرت القصر متوجهاً نحو بغداد ، وقد استطعت ان اخترق الحصار بلطف من عند الله وسرت الى دار عمتي الأميرة صالحة ولم تلبث جلالة الملكة التي اندهشت للحادث ان اهتدت الى مكاني فحضرت بعد ساعة للاطمئنان عن وصولي واخبرتني بان احداً لم يمس قصر الزهور بسوء . ولما انبلج الصبح عادت جلالتها إلى قصر الزهور . بينما توجهت انا إلى البصرة فبلغتها مساء الخميس الموافق ٣ نيسان ١٩٤١ . وقد حاولنا هناك ان نستقدم أعضاء الوزارة لنعمل بعيدين عن الضغط الموجود في بغداد ونقضي على حركة رشيد عالي الكيلاني ولكن الوزراء لم يستطيعوا الوصول الينا . وكذلك علمت هناك ان الضباط أرغموا طه الهاشمي على تقديم استقالته . »

(١) قدم السادة التالية اسماؤهم طلباً لوزارة العميد طه الهاشمي بتاريخ ٢٧ آذار ١٩٤١ بتشكيل حزب سياسي باسم « حزب الشعب » : رشيد عالي الكيلاني وناجي شوكت وعلي محمود الشيخ علي ويونس السبعاوي ومحمد علي محمود وداود السعدي والدكتور محمد حسن سلمان .

(٢) يقول سمو الوصي في خطابه المذكور من قبل ما يأتي : « ... ولم تصلنا الاستقالة بل اطلعنا عليها في الصحف المحلية ، لذلك لم نتمكن من تأليف وزارة جديدة . وبناء على التصرفات التي جرت باسم حكومة الدفاع الوطني وكانت مخالفة للدستور ، ونظراً لضرورة معالجة الحالة في جو صالح اضطررنا لمغادرة البصرة الى خارج العراق . »

اما حكومة « الدفاع الوطني » التي يشير اليها الخطاب فقد قرر الضباط المسيطرون على الجيش في بغداد تأليفها من السيد رشيد عالي الكيلاني رئيساً ومن الاعضاء العقداء الاربعة صلاح الدين الصباغ وفهمي سعيد وكامل شبيب ومحمود سلمان مضاف اليهم السيدان علي محمود الشيخ علي ويونس السبعاوي .

وفيما يلي ندرج نص الاستقالة المشار اليها نقلا عن الجرائد المحلية :

اضطلع رشيد عالي برئاسة الوزارة (١) « بناءً على طلب الشعب والجيش» كما أعلن للملأ . اما كيف أعرب « الشعب » عن نفسه بذلك الاعراب المزعوم وطلب مثل هذا الطلب فهو شيء يصعب فهمه .والظاهر ان الشعب لم يطلب مطاليب اخرى لان وزارة ما لم تتشكل ، ولم تنشر قائمة باسماء الوزراء . وانما صدر بحذق وبراعة

الى صاحب السمو الملكي الوصي المعظم

نزولا عند رغبة سموكم تقلدت رئاسة الوزارة في وقت كانت مصلحة البلاد تتطلب التضحية وتضامن جميع رجالاتها . وقد سعيت في خلال الشهرين المنصرمين الى تهيئة الأحوال وازالة التوتر .

ويظهر ان مسعاي هذا لم يثمر النتيجة المطلوبة ، فلذلك رأيت من المصلحة ان اقدم الى سموكم استقالتي من رئاسة الوزارة راجياً قبولها وسائلا الباري تعالى ان يأخذ بيدكم ويساعدكم على ادارة البلاد وايصالها الى اهدافها السامية .

المخلص
طه الهاشمي

اما كيف استحصلت هذه الاستقالة فيقول المطلعون ان العقداء الاربعة أنذروا قطعات الجيش الموجودة في بغداد مساء الثلاثاء المصادف ١ نيسان ١٩٤١ واحتل الجيش في منتصف الليل دوائر البرق والتلفون والبريد وبعض المراكز المهمة في العاصمة ، ثم قصد العقيد فهمي سعيد ووكيل رئيس أركان الجيش محمد امين زكي دار العميد طه الهاشمي رئيس الوزراء واخبراه ان الحالة بلغت حداً لا يطاق وانه لا بد من حل الازمة بالتعاون مع السيد رشيد عالي الذي يضع الجيش فيه ثقته ، كما أصرا عليه بتقديم الاستقالة . فرفض الرئيس التعاون مع رشيد عالي بالنظر لاختلاف وجهات النظر ، ولما رأى اصرارهما على تقديم الاستقالة كتبها وسلمها لهما حسماً للمشكل وتجنباً لاراقة الدماء . فقبلها الوصي الذي نصبه رشيد عالي وجماعته ، الشريف شرف ، بتاريخ ١٠ نيسان ٩٤١ .

(١) بعد ان استحصلت حكومة الدفاع الوطني قراراً من مجلس الامة في جلسته المنعقدة يوم الخميس الموافق ١٠ نيسان ٩٤١ بتنصيب الشريف شرف وصياً على العرش اتفقت الكلمة على انهاء الحكم العسكري وحل حكومة الدفاع الوطني . فكلف الوصي الجديد الشريف شرف السيد رشيد عالي الكيلاني تأليف وزارة جديدة ، فتألفت في يوم ١٢ نيسان من الاعضاء التالية اسماؤهم :

السيد رشيد عالي رئيساً للوزارة ووزيراً للداخلية بالوكالة

والسيد ناجي السويدي وزيراً للمالية ، والسيد ناجي شوكت وزيراً للدفاع ، والسيد موسى الشابندر وزيراً للخارجية والسيد علي محمود الشيخ علي وزيراً للعدلية والسيد محمد علي محمود وزيراً للاشغال والمواصلات والسيد يونس السبعاوي وزيراً للاقتصاد والسيد رؤوف البحراني وزيراً للشؤون الاجتماعية والدكتور محمد حسن سلمان وزيراً للمعارف .

اما وزارة طه الهاشمي التي اجبرت على الاستقالة فقد كانت متألفة من السادة الآتية اسماؤهم :

بيان (١) من « الجيش » ورد فيه ان الجيش سلم مقاليد السلطة الى رشيد عالي كما انهال البيان على الوصي بالشتم و بذيء الكلام . ومع ان الألمان قد انزعجوا من حصول الانقلاب في غير الوقت المقدر له فقد كانوا مستعدين بأسلوبهم المألوف لنشر الدعاية التي يتطلبها الموقف . فأخضعت الصحافة في الحال للرقابة وأخذت محطات الاذاعة الألمانية تردد بفرح وحبور انغامها النابية الملأى بالقدح والسباب والدالة ، بحسب المأمول ، على ان بريطانيا كانت الغول الذي يهدد السلام على الارض . كما

طه الهاشمي رئيساً للوزارة ووزيراً للخارجية والدفاع بالوكالة
عمر نظمي وزيراً لداخلية ووزيراً للعدلية بالوكالة
علي ممتاز الدفتري وزيراً للمالية ووزيراً للمواصلات والاشغال بالوكالة
عبدالمهدي وزيراً للاقتصاد ، وحمدي الباجهجي وزيراً للشؤون الاجتماعية
وصادق البصام وزيراً للمعارف . ثم تعين في يوم ٤ شباط ١٩٤١ السيد توفيق السويدي وزيراً للخارجية .

(١) نشرت رئاسة أركان الجيش العراقي في يوم ٤ نيسان بياناً جاء فيه :

« علم الجميع ان صاحب السمو الوصي الأمير عبد الأله قد أخذ منذ حين يخالف واجبات الوصاية حتى بلغ به انه لم يتورع عن التشبث بشتى الطرق لاستحصال البيعة من بعض الناس . فتحدى العرش الذي اؤتمن عليه واندفع لتحطيم الجيش الوطني ... وقد عمد سموه الى إحداث الشقاق في صفوف الأمة حتى أوصل المملكة الى حالة خطيرة من القلق . وعبثاً حاول المصلحون نصحه واقناعه بضرورة احترام حدود واجباته الدستورية ، وعبثاً حاولوا الفات نظره الى انه غير مسؤول دستورياً . فأخذت شؤون المملكة تسير من سيء الى أسوأ ... فعم السخط على تصرفات الوصي وبطانته حتى ان فخامة رئيس الوزراء لم ير الا الاستقالة وسيلة للتخلص من المسؤولية . » وبعد ان يتطرق البيان الى مغادرة سمو الوصي مكانه وتهربه من واجبات الوصاية كما يدعي يعود فيذكر ما يأتي : « بناء على ما تقدم وحرصاً على محافظة كرامة الأمة وسلامة الدولة فقد أودع تدوير دفة الأمور الى حكومة الدفاع الوطني برئاسة رجل مؤمن بحق الامة العزيزة في الحياة الحرة السعيدة وبقوتها على الاحتفاظ باستقلالها وسيادتها الوطنية من غير إخلال بواجباتها الدولية . وقد أظهر الرأي العام الوطني ثقته به واطمأن الى صلابته السياسية ، وهو صاحب الفخامة السيد رشيد عالي الكيلاني الذي طلب الجيش اليه تحمل هذه المسؤولية الشاقة ريثما يتم اتخاذ التدابير الدستورية في جو من الطمأنينة والثقة العامة بعودة الامور الى مجاريها الطبيعية ... »

وضعت نكبة فلسطين المؤسية ، التي تعد عصا مفيدة يُضرب بها الانكليز في البلاد العربية ، في آذان العراقيين بعد ان زوقت بكل نوع من انواع التزويق يمكن ان يتصورها المرء المتعود على الكذب والخبير به ، و بتكرار قاس لا هوادة فيه . ثم ان القصة القديمة التي تفيد بان البريطانيين كانوا قد قتلوا الملك غازي ، الذي توفي بحادثة سيارة ، قد خلقت من جديد وأذيعت على الملأ . وقد استغل بالاضافة الى ذلك التعصب العنصري والتعصب الطبقي والتشنيع الديني وظلامة « الضعة » ، كما لعب على كل وتر ممكن أعظم الدعاة خبرةً وأقلهم تورعاً في العالم .

على ان شخصيةً اخرى كانت قد اعتلت خشبة المسرح . ففي اليوم الذي كان الوصي على العرش قد نجا فيه بحياته كان السر كيناهان كورنوالس قد وصل بغداد (١) بوصفه سفيراً جديداً في العراق . وقد التقى الرجلان بالفعل لعدة دقائق في مطار الحبانية . ولم يكن السر كيناهان غريباً عن العراق او عن شخصياته . فقد كان المستشار الشخصي للملك فيصل الاول ، وكان يتكلم العربية بطلاقة .

وكان الوضع الذي وجد فيه السفير الجديد نفسه فريداً في بابه، مزعجاً الى اقصى حد . فلم يكن هناك من يستطيع ان يقدم له اوراق اعتماده رسمياً وشرعياً . وكانت المملكة التي بُعث سفيراً الى بلاطها قد أصبحت ألعوبة بيد عصابة من المغامرين تحالفت تحالفاً يكاد يكون صريحاً مع الأمة التي كانت تحاول القضاء على أمته هو . وكان وصول الطيارات الالمانية يُنتظر في كل ساعة ، كما كان الجيش العراقي في قبضة يد الثوار . ومنذ ان اعطي العراق استقلاله لم يبق في البلاد جنود بريطانيون قط . وكان السر كيناهان خلال الاربع عشرة سنة التي أقامها في البلاد من قبل قد ارتبط برابطة الصداقة المتينة مع الكثير من وجوه العراقيين ، وبالنظر لوجود رشيد في الحكم

(١) نشرت الجرائد في حينه ان السر كورنوالس وصل بغداد في يوم ٢ نيسان — المترجم

لم يستطع أحد منهم ان يجازف فيأتي لزيارته . وبانعزاله هذا عن الجميع لخص الموقف لحكومته ، واشار عليها وهو على علمٍ تام بالعبء العسكري الثقيل الذي كانت تنوء به بريطانيا بوجوب أنفاذ الجيوش الى العراق،والا فيجب عليها ان تكون على استعداد لترى البلاد واقعةً في قبضة الالمان .

فتبودلت البرقيات المستعجلة بين لندن ودلهي الجديدة. وبالنظر لان الالمان كانوا يشقون طريقهم عنوةً الى بنغازي و يندفعون نحو أثينة ، ولما كانت جيوش رابطة الشعوب البريطانية محصورةً في كفاحها من أجل الحبشة ، ولما كان الخطر في الشرق الاقصى يتعاظم يوماً بعد يوم ،لم يكن في الامكان الاستغناء عن أي فوج من الافواج .غير ان الضرورة لا تعرف معنى للنقاش.فقد كانت في كراتشي قوة عسكرية يقودها أمير اللواء و . ك . فريزر تتألف من لواء المشاة الهندي العشرين والجنود الملحقين به مع كتيبة من مدفعية الميدان في طريق أبحارها الى بلاد الملايو . فتقرر ان تتجه في ابحارها نحو العراق . ولم تكن هذه القوة مجهزةً بما يساعدها على الحركات في الصحراء ، كما لم تكن اسلحتها معدة للعمل العاجل عند نزولها الى البر . وقد كان يبدو من الوضع ان العمل العاجل كان شيئاً لا بد منه . على ان الوقت كان يعوّل عليه اكثر من الفطنة . فقد شحنت في الوقت نفسه في طائرات الفلانشيا الى البصرة ثلاث سرايا مع فصيل مساعد واحد من فصائل الفوج الاول والكتيبة الملوكية الخاصة .

و يتحتم بموجب المعاهدة[1] العراقية الانكليزية لسنة ١٩٣٠ على صاحب

---

(١) تنص المادة السابعة من الملحق العسكري للمعاهدة المذكورة على مايأتي : يوافق جلالة ملك العراق على ان يقوم ، عند طلب صاحب الجلالة البريطانية ذلك ، بجميع التسهيلات الممكنة لمرور قوات صاحب الجلالة البريطانية من جميع الصفوف العسكرية عبر العراق ولنقل وخزن جميع المؤن

الجلالة البريطانية أن يقوم باخبار ملك العراق عن رغبته في انزال جنود بريطانيين الى البر العراقي . ولما كان الوصي على العرش في حالة تشبه النفي لم يسع السفير البريطاني تنفيذ هذا الالتزام الا بالتعامل مع رشيد عالي نفسه لكونه صاحب السلطة بموجب الامر الواقع . فلم يكن من رشيد ، الذي كان على علم تام بالمعاهدة ، الا ان يوافق على نزول اللواء الاول من القوات المذكورة . وعندما اخبر عن وصول لواء آخر أخذ يحتج مفيداً بان اللواء الاول يجب ان يكون قد تحرك خارجاً الى الجهة التي يقصدها قبل نزول اللواء الآخر . ولم يكن هناك غير جواب بسيط واحد على قوله هذا ، وهو ان الفيضان السنوي الذي يغمر مساحات شاسعة من الارض في شمال البصرة يجعل حركة القوات المسلحة أمراً غير ممكن .

وبذا فقد كانت المداولات التي أعقبت ذلك أشبه ما تكون بمبارزة ديبلوماسية . حيث ان رشيد عالي كان يعرف معرفة تامة ان البريطانيين لم يكن لهم ما يكفي من القوة المسلحة ليقاتلوا في العراق ، كما انه كان يعرف ايضاً انهم سوف يكافحون في كل يوم ينقضي من اجل تحسين وضعهم العسكري . وكان الوضع يحتم عليه لأول وهلة ان يطلق الجيش من عنانه في الحال فيخرج البريطانيين من البلاد . غير انه اذا حدث خطأ ما في جهة من الجهات ، واذا مارس البريطانيون مقدرتهم التاريخية المعروفة « في استخراج الكستناء من النار » فقد يخسر الموقف بأجمعه قبل ان يتقرب الالمان من العراق بحيث يتمكنون من مساعدته . وعلى هذا فاذا حكمنا على

والتجهيزات التي قد تحتاج اليها هذه القوات في اثناء مرورها في العراق . وتتناول هذه التسهيلات استخدام طرق العراق وسككه الحديدية وطرقه المائية وموانئه ومطاراته . ويؤذن لسفن صاحب الجلالة البريطانية اذناً عاماً في زيارة شط العرب بشرط إعلام جلالة ملك العراق قبل القيام بتلك الزيارات للموانىء العراقية .

الوضع حكماً سطحياً نجد ان جميع الاوراق كانت في يده ، على ان الورقة التي كانت تعوزه ـ كما اثبتت الحوادث فيما بعد ـ كانت ورقة تأييد الأمة العراقية التي لم تكن تؤيده منها سوى أقلية ضئيلة . ومن الممكن للمرء ان يعطف لحظة واحدة على هذا الرجل الصغير ذي النظارات ، والطموح المعوج اعوجاجاً أساسياً ، وهو ينازل رجلاً أيرلاندياً مديد القامة جميل الطلعة يعرف كل حركة من حركات اللعبة الديبلوماسية ، ويلعبها بموجب القوانين المرعية بلذة تامة ، والمقتدر اقتداراً فطرياً على ضبط الاعصاب وبرودة المزاج .

وقد وصل اللواء الثاني الى البصرة من الهند في يوم ٢٨ نيسان . فبدأت في ٢٩ منه وحدات الجيش العراقي بالتحرك من معسكر الرشيد ببغداد الى اجراء التدريب بحسب ما قيل للضباط الصغار . وكان المكان المنتخب لهذا التدريب يقع على بعد خمسة وخمسين ميلاً من غرب بغداد ، وهو الحبانية .

وكان من الحقوق التي منحت لبريطانيا العظمى في معاهدة [١] ١٩٣٠ قيام القوة الجوية الملكية بانشاء محطات للطيران واستعمالها عند الحاجة ، وكانت الحبانية احدى هذه المحطات . وعلى هـذا فقد كانت أنشئت هنا على ضفاف الفرات بلدة انكليزية محاطة باسلاك شائكة وبمئة ميل مربع من البادية ، وفتحت فيها شوارع نظيفة منتظمة تحمل اسماء لندن وفارنبوره ونورثولت . كما بنيت فيها « بناكل »

---

(١) تنص المادة الخامسة من المعاهدة المذكورة على ما يأتي : ... ومع ذلك يعترف جلالة ملك العراق بان حفظ وحماية مواصلات صاحب الجلالة البريطانية الاساسية بصورة دائمة وفي جميع الاحوال هما من صالح الفريقين الساميين المتعاقدين المشترك . فمن أجل ذلك وتسهيلا للقيام بتعهدات صاحب الجلالة البريطانية وفقاً للمادة الرابعة اعلاه يتعهد جلالة ملك العراق بان يمنح صاحب الجلالة البريطانية طيلة التحالف موقعين لقاعدتين جويتين ينتقيهما صاحب الجلالة البريطانية في البصرة او في جوارها وموقعاً واحداً لقاعدة جوية ينتقيها صاحب الجلالة البريطانية في غرب نهر الفرات ..

محكمة الابواب يصل اليها الماء الساخن بحنفيات كتب عليها « ساخن » وزرعت فيها ساحات الثيل الانكليزية والاشجار اليانعة والازهار المكتظة في مثل هـذا الوقت من السنة اي في بداية مايس . وكان يعيش هنا بالاضافة الى ألف من رجال القوة الجوية الملكية عدد كبير من العمال العراقيين وأسرهم ، كما كانت تنتظر هنا النقل بطائرات « الفالانشيا » الى الخارج مستعمرة صغيرة من النساء والاطفال البريطانيين الذين كانوا أجلوا اجلاءً عاجلاً من بغداد .

وتقع هـذه الابنية في الجانب الشمالي من المطار . وفي الجانب الجنوبي توجد هضبة كبيرة يبلغ ارتفاعها حوالي الثمانين قدماً ، ويشعر المرء الذي يقف على حافة هذه الهضبة انه يستطيع ان يقذف حجراً ما بين الأبنية . غير ان هذا الشعور ما هو الا وهم محض لان المسافة تبلغ عدة مئات من الياردات ، لـكنه يمكنه بطلقة يطلقها من البندقية وهو واقف هناك ان يصيب اي شباك ينتخبه في تلك الابنية . حيث ان مجموعة الابنية كلها تتعرض الى نقطة المراقبة هذه كما تتعرض الاشارات الارضية التي يستعملها الجيش البريطاني في تدريبه على معرفة الاهداف . إذ تقع أوكار الطائرات وسقائفها الضخمة في المقدمة ، كما يقع في وسطها خزان الماء العالي الـكبير ، الذي يمد الاشجار والازهار والبشر الموجودين في تلك الواحة بماء الحيـاة ، وكأنه اقيم هناك ليقوم مقام نقطة الارشاد والاستدلال . ومن الصعب ان يتصور المرء موقعاً اكثر لياقةً من هذه الهضبة تحتله قوة امرت بمهاجمة البـلدة المجاورة لها وتدميرها . وقد احتلت هذه الهضبة بعينهـا قوات رشيد عالي ، وكانت تتألف من لواء مشاة ولواء مدفعية آلي واثنتي عشرة سيارة مصفحة وفصيل آلي للرشاشات وعدد من الدبابات . وما ان وصلت هذه القوة حتى أخذت تعزز مواقعها وتحفر الخنادق بعد ان صوبت فوهات الاسلحة نحو مجموعة الابنية . وقد بدا هذا العمل للبريطانيين الذين أصبحوا

نقطة الهدف تدريباً غريباً في بابه . وازداد الموقف غرابةً عندما أمر قائد تلك القوة ، متجاهلاً المعاهدة العراقية الانكليزية ، القوة الجوية الملكية بالكف عن اجراء التدريب .

فماذا كان جواب الحبانية على هذا التحدي يا ترى ؟ لقد كانت القوة المتيسرة للدفاع البري في المحطة تتألف من ١٢٠٠ رجلاً من شبابة القوة الجوية . وكان قسم من هؤلاء من العرب كما كان قسم آخر من الأكراد ، لكن نصفهم تقريباً كانوا من الآثوريين المسيحيين الذين ينتمون الى قوم منكوب لا وطن له . وبرغم جميع التهديدات التي أمطر بها الشبابة فقد ثبتوا على ولائهم للقوة الجوية الملكية وللقضية التي تولاها الوصي على العرش ، وبرهنوا (كما برهن بعضهم مرةً اخرى بعد ذلك في الحركات البرمائية البارعة في البانيا) على انهم مقاتلون على درجة عالية من الحذق والمهارة ، وصادقو العزم من دون جبن أو خوف . غير ان السلاح الوحيد الذي كان بأيديهم هو البنادق ورشاشات لويس من دون ان تكون عندهم النقالات او الحاملات المطلوبة ولا رشاشات برين ولا أي سلاح آخر من الاسلحة التكميلية التي تعد من الاجهزة الاعتيادية لأي فوج من أفواج المشاة . اما المشاة البريطانيون فقد كان هناك (٣٥٠) مقاتلاً فقط منهم بقيادة العقيد أيفريت كانت طائرات « الفالانشيا » قد نقلتهم الى الحبانية في اليوم الاخير من شهر نيسان . وكان هناك ايضاً ثماني عشرة سيارة مصفحة قديمة (لكنها لا تزال بحالة جيدة) ومدفعان للزينة كانا موضوعين على جانبي باب المقر العام وثبت صلاحهما للعمل عند الفحص . وعلى هذا فقد كان وقوف هذه القوة الدفاعية بمجموعها أمام اللوائين من قوات رشيد عالي ، المجهزة بأحدث أنواع المدفعية وسائر الاسلحة ، يبدو شيئاً اشبه بالمزاح المحض . وقد علم

هناك ان المدد قد يصل من قوة بريطانية صغيرة تتألف من مختلف صنوف الاسلحة كان يجري حشدها في فلسطين . غير ان فلسطين كانت تبعد عن الحبانية عبر البادية بمقدار بُعد أدنبره عن لندن ، في حين ان الالوية الواصلة من الهند كانت تحجز بينها و بين الحبانية مسافة اربعمئة ميل أخرى من البادية والمسافات الشاسعة من الارض المغمورة بمياه الفيضان .

ولو كانت محطة القوة الجوية الملكية هـذه بيد أسراب فعالة من القوة الجوية لكان هناك شيء من الأمل الذي يخالج نفس اللاعب الرياضي في اتخاذ سياسة للصمود تجاه هذا الحصار . لكن هذه المحطة لم تكن سوى محطة للتدريب على الطيران فقط . فقد كان فيها اربع وستون طائرة من طيارات التدريب لا يمكن استخدامها في الحركات العسكرية الا بعد إجراء تعديلات جريئة فيها . وكانت ثلاثون طائرة منها فيها طيارون قد حصلوا على بعض الخبرة لكنهم كانوا بعيدين عن الخبرة في الحركات الفعلية ، وكان من الممكن ايجاد عدد من طلاب التدريب يكفي لاستخدام سائر الطائرات في القتال ممن حصلت عندهم الخبرة نفسها وممن يتوفر فيهم شيء اكثر من قوة الاعصاب . وكان من المحتمل ان تقابل هذه القوة الجوية قوة جوية عراقية كانت بعيدة عن ان تعتبر قوةً لا يعبأ بها ، وفي وسعها ان يصلها المدد من الطيارات الالمانية والايطالية بين ساعة واخرى . وعلى هذا لم يكن الدفاع عن الحبانية شيئاً معقولاً اذا اخذنا بنظر الاعتبار جميع نواحي العلوم العسكرية .

غير ان قائد القوة الجوية الملكية قرر الدفاع عن موقعه على الرغم من وجود هذه العوامل جميعها ، و برغم الكابوس الذي كان يشعر به من جراء وجود مستعمرة من النساء والاطفال تستظل بحمايته .

اما من الوجهة العملية فقد كان هناك عامل واحد يعمل في مصلحته ، وهو ان الجيش المرابط على الهضبة لم يكن يحارب من اجل مبدأ معقول . وكان افراد هذا الجيش جنوداً قديرين من حيث الامكانيات العسكرية ، لان جيشاً يُفتخر به قد تكوّن منهم ومن أمثالهم منذ ذلك الحين . كما انهم كانوا مقاتلين شرفاء كما ظهر فيما بعد في امتناعهم بدقة عن قصف مباني المستشفى . (عندما جاء الالمان لم يظهروا اهتماماً بمثل هذه القواعد الحربيـة) . ولا شك ان الجنود الذين يشعرون بشعور المعـاملة الشريفة لا يبذلون كل ما عندهم من الجهد عندما يغامر قادتهم الكبار بالثوره ضـد عرش بلادهم هم انفسهم . وقد ثبت في الأخير بأن هذا العامل كان عاملاً حاسماً في معركة الحبانية . غير انه لم يكن عاملاً تتمكن القوة الجوية الملكية ان تعوّل عليـه لانه من الجوهري في التقديرات العسكرية ان يُفترض بان معنوية العدو ستكون معنوية عالية .

فرُفض امر الكف عن التدريب على الطيران رفضاً باتاً ، وقـامت الطائرات باستعراض متعمد . يضاف الى ذلك ان قوات رشيد عالي أُخبرت بان وجودها على تلك الهضبة يصعب تفسيره بغير اعلان الحرب ، وطُلب اليها ان تقوم بمناوراتها في مكان آخر ، فرُفض هذا الطلب بالمقابلة . ثم ان الاتصال الاعتيادي بين القوة الجوية الملكية والسفارة البريطانية في بغداد كان قد انقطع ، لكن القوة الجويـة كانت لها طرائقها الخاصة في الاتصال ، فسئلت عما اذا كان القانون يسمح بلكم الرجل الواقف وهو يهم بانزال ضربة هراوة ثقيلة على رأسك . فأجابت السفارة على هذا السؤال الطريف جوابها الرسمي ، وعند ذاك طلب الى الجيش المرابط على الهضبة ان يتم جلاؤه عنها في الساعة الخامسة من صباح يوم ٢ مايس .

وعندما بزغ فجر اليوم الثاني من شهر مايس كان الجيش لا يزال مرابطاً في مكانه . فصعدت طيارات تدريب القوة الجوية الملكية الى الجو وانتشرت فيه وهي تقلقل برفوف القنابل التي رُكّبت فيها . وفي الساعة الخامسة والدقيقة الخمسين من ذلك الصباح أُسقطت أول قنبلة فوق الهضبة . وفي ظرف خمس وخمسين ثانية بموجب ساعة ضابط حسابات المحطة الدقيقة دوت في الجو القذائف التى أجابت على القنبلة .

الفصل الرابع

معجزة الحبانية

●

لقد وقعت المعجزة في الحبانية بفضل البرود والتروي،والعمل الشاق المتواصل، والفطنة التي لا قياس لها . فقد كان هناك ضباط كانوا يفهمون طبيعة الحرب بحيث يعرفون الممكن فيها وغير الممكن . وقد أدرك هؤلاء بتفكيرهم الخاص ان سقوط المعسكر بيد العدو اصبحت قضيته قضية وقت لا غير . وكان من المحتمل ان تكون مشكلة الماء نفسها هي المشكلة التي تقرر المصير . فعولجت المشكلة بان صدر الامر للجميع بان تبقى جميع الاحواض الموجودة في الحمامات وجميع الاواني والاوعية المتيسرة مملوءة بالماء ، غير ان خزان الماء العالي اذا ما اصيب بقذيفة من القذائف - ولم يبد من الممكن ان لا يصيبه اي مدفعي كان في العالم - فان الموت البطيء للمحطة كان سيبدأ بصورة لا مناص منها . كما كان من الممكن ان تستقيم مخازن الاغذية وقتاً اطول ، غير انه كانت هناك آلاف من الافواه يتحتم اطعامها . وترتب على هذا ان يؤتى بالمزيد من الاغذية من مسافة مئات الأميال بالطيارات القليلة المتيسرة التي يجب ان تطير من فوق مدافع العدو . وكان من المحتمل اكثر من ذلك كله ان تتعرض المحطة الى هجوم مباشر تشنه قوات العدو في اي وقت كان .

حيث ان ألوية رشيد عالي المجهزة بالمدفعيــة الوافرة والدبابات عند ما تقرر الزحف لاكتساح الابنية والمعسكر سيؤدي ذلك لا الى التسليم بل الى دنو النهاية .

وقد وضع رجال الحامية جميع هذه العوامل نصب أعينهم فعاشوا واشتغلوا وقاتلوا كما لو كانت الظروف بأجمعها في جانبهم ، وكما لو كان القضاء على العدو شيئاً لا يستدعي سوى الجهد والوقت . وقد جاء في نشرة مقر القيــادة الجوية التي نشرت هناك بان « ثلاثة أرباع الفرصة للنجاح تتوقف على الروحية الواثقة ، وربعاً واحداً فقط يتوقف على الظروف المادية » . فملئت الطائرات بالوقود وشحنت بما يلزم ثم صفت وراء الاوكار ، وما تم كل شيء من هذا القبيل حتى صعدت الى الجو على مرأى من العدو ومسمع منه . وصار البرادون والعمال يحتشدون حول كل طائرة تعود من مهمتها وليس في مخيلتهم سوى سؤال واحد هو : أيمكنها بالتصليح والتعمير ان تعود ثانيةً الى الجو ؟ وعلى هذا فقــد كانوا يشتغلون بانتظام وتناسق تسع عشرة ساعة في اليوم ، ويلعنون الظلام الذي كان يغتصب منهم الساعات الخمس الاخرى . وبرغم هذا الجهد المتواصل فقد تضاءل عــدد الطائرات الفعالة ، لكن بضع طائرات من طراز « بلنهايم » جاءت من الخارج لتنضم الى القوة المناضلة ، حتى ظهر للعدو المرابط فوق الهضبة ان السماء كـانت ترغش بالطائرات البريطانية في جميع ساعات النهار والى ساعة متأخرة من الليل ايضاً . وكان الطيارون يهاجمون بانتظام أوكار المدافع ، وينقضون على المطارات التي كانت تصعد منها الطائرات المعادية لتشترك في المعركة ، ويعيثون تدميراً بارتال التجهيزات والتموين التي كانت تخرج من بغداد . كما كانت الأُسر البريطانية تُنقل بانتظام الى البصرة ، وأُسر الشبانة الى فلسطين .

وكان الناس في المحطة خلال تناول وجبات طعامهم المستعجلة يرقبون القذائف وهي تتساقط فيها ويتراهنون بالدراهم عن الوقت الذي تصيب فيه احداهـا

خزان الماء ، بينما كان ضباط المحطة الذين تزعجهم صليات الرشاشات التي تصيب سقف ناديهم يدونون شكاوى عنيفة في سجل المقترحات . وكان احد ضباط الادارة يطير بانتظام الى الخليج مع مبالغ غير يسيرة من المال ويعود بطائرة موسوقة بالعطاريات والمأكولات . وفي كل يوم كانت دائرة الاستخبارات تنشر نشرتها التي تنقل الى الحامية بواسطتها كيفية سير الحرب مع خبر او خبرين عن الحبانية ، وبعد ان يهضم هذه مع الشطائر التي يتناولها الرجل الذي يصعب ان يطلق عليه اسم « تلميذ طيار » يعود مستعجلاً الى الاوكار ويدفع ما بقي من طائرته الى الجو ثم يأخذ بقصف مراكز العدو بوابل من قنابله من جديد .

ولم يكن الدفاع الارضي أقل تحديا واعتدائية ، والحقيقة هي بانه يصعب على المرء ان يشعر في حرب تتسعر نيرانها بمقياس ضيق بغير انتشار روحية النجاح بالدفاع الهجومي. ولا غرو فان نظاماً دفاعياً أساسياً كان قد وضع بدقة واتقان ووضع في موضع التطبيق ، فقد قسم المحيط الى قطاعات وزعت مسؤولياتها على المدافعين وأنشئت المعاقل والاستحكامات والخنادق للاتصال . غير ان مهمة القوة العسكرية الموجودة والشبانة (وكانا معاً بقيادة الكولونيل براون قائد الدفاع الارضي) كانت منحصرة في الدرجة الاولى بالتفتيش عن العدو وانزال الضربات به ، فكانت هذه خطة فعالة بحيث ان المدافعين كانوا منذ بداية الحركات المتطاولة هم المسيطرين على المنطقة الحرام التي تحجز بين الفريقين . وكانت بعض مدافع العدو في اليوم الاول تقلق المحطة من الجانب الآخر من الفرات . فعبر فصيل احدى السرايا الكردية النهر العريض السريع الجريان بزورق بخاري قديم ، تحميه نيران الاسلحة الصغيرة التي كان يصبها احد معاقل الدفاع ، وهاجم تلك المدافع عبر أرض مفتوحة كان يغمر قسماً منها الماء . فأوقع جنود هذا الفصيل برجال مدفعية العدو المذكورة حوالي

الثلاثين أصابة قبل ان تضطرهم نيران الرشاشات على النكوص . و بعد عدة ايام استولت دورية كانت تتجول في شمال النهر على سيارة للعدو وعلى قذائف هو يتزر من عيار (٣،٧) و بعض قطع الغيار . وقد سحبت السيارة المثقلة بحملها على مرأى من الجميع لعدة اميال على طول السدة ثم وضعت في جنيبة من الجنائب شدت الى زورق بخاري وسحبت عبر النهر الطاغي . وفي هذه المرحلة اخذ العدو يبدي حذراً متناهياً من دوريات الشبانة التي كانت تتوغل خلال الليل بعيداً لاصطياد افراده في المراكز النائية ، وما مر زمن حتى اخذ العدو يقيم لهذه الدوريات وزنها ، وبادر الى اخلاء مراكزه الامامية في اثناء الليل . وهذا هو نوع التفوق الذي جاهد الدفاع كثيراً في سبيل استدامته . ولم يكن من الممكن خلق هذا التفوق بالقوة المتيسرة ، القليلة بالنسبة لقوة العدو ، الا بالجرأة المستديمة . ومما يبرهن على ذلك ان دوريات العدو لم تحاول التوغل في خطوط البريطانيين .

وكان الشبانة يودون ان يكونوا منشغلين على الدوام ، وعلى هذا فقد كانوا يمارسون تدريب أنفسهم على سبيل التسلية في الاوقات التي لم يكونوا منشغلين فيها بالدوريات او باطلاق النار من المعاقل . وكان بعض هذا يجري بصورة تلقائية ، فقد كتب احدهم في مذكراته بلهجة مفعمة بالرضا والقناعة بان « السيارات والدراجات والمراسلين كانوا يستمرون على التجمع قدام الباب الامامي حتى يجعل شيء من القصف والقذف جميع الترتيبات على احسن ما يرام » .

و بشيء اكثر من التعقد ، ومع الارشاد الودي الذي يقوم به افراد الجيش النظامي كان الشبانة يدرسون رشاشات البرين ، ولما كان العدو قد اخفى مراكزه خفاءً جيداً لا يسمح باتخاذه اهدافاً للتمرين فقد كانوا يتمرنون في ميادين الرمي . وكان صاحب المذكرات السابقة يدون في بعض الاحيان الجملة التالية : « يوم

هادىء خالٍ من الحوادث » . وقد يتساءل المرء عما اذا كان العـدو قد مرت عليه ايام مُرضية مثل هذه .

وقد كوفىء المدافعون بأول مكافئـة عن جرأتهم المشوبة بالتهامل وعدم التقيد في يوم ٦ مايس . فقد جرت بعض الحركات في الليلة السابقة فاقتنصت احدى دوريات العدو في العراء وأنزلت بها اضرار فادحـة . وعند بزوغ الفجر اجريت الاستطلاعات الرتيبة في جهة الهضبة فكانت الارض خاليـة ، كما شوهدت آخر وسيلة من وسائل نقل العدو تتراجع نحو الشرق . وبذلك نجح أسوأ وضع دفاعي في العالم نجاحاً باهراً .

الا ان العدو لم يذهب الى مسافة بعيـدة . ففي الطرف الشرقي من المطار كان الطريق يتموج خلال طنف من طنوف المنحدر ، وقد اتخذ مواقعه الجديدة بين هذا الطنف ونهر الفرات وصار في وسعه من مواقعه هذه ان يسد الطريق سداً فعالا في وجه اي تقدم يمكن ان يجري نحو بغداد . فكان هذا شيئاً غير محتمل بالنسبة للقوة الجوية الملكية التي كانت قد قررت بانها يمكن اذا سُمح لها بالوقت الكافي ان تربح المعركة كلها بواسطة تلاميذ الطيران الذين كانوا تحت التدريب بطيارات مرقعة. كما كان ذلك شيئاً غير محتمل بالنسبة للشبانة الذين اصبحوا يعتقدون اعتقـاداً له ما يبرره بانهم يستطيعون قهر أي عدوٍ كان بايديهم العارية . أضف الى ذلك ان الكتيبة الملكية الخاصة لم تكن على استعداد لتحمل مثل هذا الوضع ولو لبضع ساعات . وقد اصبح الموقـع الحربي يتركز في قرية تسمى « سن الذبان » ، وهي قرية معروفة لدى البريطانيين المولعين بالاسماء المحلية مثل اسم سيدي براني . فوضعت الخطة في الحال للاستيلاء على القرية المذكورة . وفي الساعة السابعة والنصف من صباح اليوم نفسه كان الهجوم قد بدأ .

فقد شُن الهجوم مبدئياً بسريتين من سرايا الكتيبة الملكية الخاصة وبقيام مصفحات القوة الجوية الملكية بالتجول في الهضبة لحماية الجناح الايمن . غير ان المعركة لم تكن على ما يرام في مرحلتها الاولى .لان العدو ابدى برودة وتروياً وحساً تعبوياً ، فأمسك عن اطلاق النار حتى وصلت السرية المتقدمة الى ما يقرب من مواقعه ، وعند ذاك فتح النار من رشاشات الفيكرز والبرين من الامام ومن الجناح الأيسر . وقد قام المهاجمون بهجوم جريء حاولوا ان يصلوا به الى مبتغاهم ، لكن شدة النار التي جوبهوا بها كانت أكثر مما يُحتمل . وبعد ان منوا بخسائر فادحة تقهقروا الى الوراء في حين قامت السيارات المصفحة بحملة انتقامية غير يسيرة من جناحهم الايمن . وفي المزرعة التي كانت تتصرف اليها أقذار المعسكر ، حيث اخذوا يلمون شملهم ويجمعون المصابين كانوا لا يزالون عرضة للنيران المتقطعة ، كما كانوا يتوقعون قيام العدو بهجوم مقابل . وكانت هذه هي اللحظة التي كان ينتظرها الشبانة بفارغ الصبر ، حيث وصلت الى ساحة المعركة سيارة « كومر » كبيرة تقلهم بأقصى سرعة وهاجمت العدو هجوماً ضارياً بنيران رشاشاتها الفيكرز بحيث تنفس مقاتلو الكتيبة الملكية الخاصة الصعداء . ثم شنوا هجوماً ثانياً تؤازرهم فيه القوة الجوية الملكية بما يساوي مؤازرة المدفعية ، وقد أشرت الاهداف الأرضية للطيارات فأمطرتها وابلاً من القنابل بدقة وجرأة متناهيتين . واشتركت في العمليات ايضاً « مدفعية الحبانية » التي أدخلت في روع العدو بان مدافع ثقيلة كانت قد نقلت بالطائرات من البصرة . وفي ظل هذا الستار الناري هاجم رجال الكتيبة الملكية الخاصة جناح العدو الأيمن ثم انقضوا على القرية واستولوا على المرتفع فتركوه وراءهم. ثم جاء دور الشبانة من جديد. فنقلت السرية رقم ٤ باللوريات في ظل نيران السيارات المصفحة الى موقع هجومي يقع في الجناح البريطاني الأيمن، وهناك انتشر افرادها وهاجموا

مباشرةً موقعين كان العدو لا يزال متمسكاً بهما . فدُمر هذان الموقعان ايضاً ولم يعد العدو للاستيلاء على مواقع سن الذبان من جديد قط . على ان هذه العمليات لم تكن من دون ثمن ، فقد قتل سبعة من رجال الكتيبة الملكية الخاصة وجرح اثنا عشر منهم واثنان من الشبانة . لكن العدو تكبد ما يقرب من الف اصابة ما عدا الستة والعشرين ضابطاً وال (٤٠٨) من الجنود الذين وقعوا في الاسر. وكانت هذه المعركة الواقعة في المرحلة الأولى من مراحل الحرب مثالاً يلفت النظر للتعاون المتقن بين القوات البرية والسلاح الجوي ، وسوف لا ينسى الطرفان صداقة القتال التي توثقت بين رجال كتيبة الملك والشبانة لكنها كانت مثالاً عزيز الشأن لما يكاد يكون قوة خفية للعقلية الهجومية .

وقد امتد في الحال طموح « الدفاع » (اذا كان يمكن ان يبقى على هذه التسمية) الى مسافة ابعد . فعلى بعد عشرين ميلاً في اتجاه بغداد يعبر الطريق الموصل اليها نهر الفرات في بلدة صغيرة تسمى الفلوجة ، وعلى هذا فطالما بقي العدو متمسكاً بهذا التقاطع يصبح الزحف الى العاصمة من الغرب شيئاً مستحيلاً من الوجهة العملية. فاصبحت الفلوجة اذن الهدف الثاني للهجوم . وتعد هذه المهمة مهمةً شاقة حتى بالنسبة لقوة عسكرية لا تقيدها مشاكل قوة الرجال والمعدات ، لان البلدة تسيطر على الجسر وما لم يؤمن الاستيلاء على الجسر يعد الهجوم على البلدة نفسها شيئاً مستحيلاً الا بوسائل كثيرة المنعطفات والالتواءات للغاية . يضاف الى ذلك ان طيارات المسرشميت كانت قد ظهرت في الجو يومذاك . لكن رجال كتيبة الملك والشبانة لم تثنهم عن عزمهم هذه الاعتبارات . وقد ازدادت في هذه المرحلة معداتهم بالنظر للاسلحة والمواد الأخرى التي استولوا عليها في سن الذبان ، وفي ضمن ذلك بعض مدافع الهويتزر من عيار (٣،٧) التي يمكنها ان تيسر لهم مؤازرة بطارية من المدفعية .

كما استطاعت الدوريات ان تضع تحت سيطرتهم التي لا تنازع المنطقة الممتدة غرباً الى الرمادي ، الكائنة على بعد عشرين ميلاً ، والداخلة في ضمن قوس متسع يمتد الى شمال النهر . وكانت القوة الجوية الملكية من جهة اخرى جادةً بانتظام في عرقلة وصول الامدادات التي كان العدو يحاول ايصالها الى الفلوجة ، في حين ان الجانب البريطاني اخذت تصل اليه من البصرة امدادات صغيرة كانت تشتمل على جنود مقاتلين واختصاصيين باسرع ما يمكن من ايجاد الطيارات لنقلها . ومهما كانت الاحوال فان ما كان قد وقع في سن الذبان يمكن ان يقع من جديد . وعلى هذا فقد بدأ العمل تواً في انشاء عبّارة يتمكن بواسطتها رتل طيار من عبور الفرات ومهاجمة الفلوجة من الخلف .

وقد يكون احتلال الفلوجة ، اذا نظرنا اليه نظرة طويلة الامد ، عملاً بديعاً ولكن لا فائدة له ، لان حامية الحبانية سوف يصعب عليها ايجاد القوة الكافية التي يمكنها الاستغناء عنها وارسالها للاحتفاظ بالفلوجة نفسها بعد ان يتم الاستيلاء عليها وخاصة بعد ان خصصت اربعة فصائل للدوريات وترتب على القوة الموجودة القيام باعمال دورية متواصلة على الدوام . ثم ان الفلوجة لم تكن من الوجهة المنطقية الا هدفاً ثانوياً في الطريق الى بغداد ، حيث يوجد عدة مئات من المواطنين البريطانيين محصورين في السفارة والمفوضية الامريكية المضيافه بانتظار ما يمكن ان يقع ، وكان من الصعب حتى على مدافعي الحبانية انفسهم ان يفكروا بالزحف على بغداد الكائنة على مسافة خمسة وخمسين ميلاً من الفلوجة . غير ان الاتجاه كان في طريقه نحو التبدل . فان غيوماً كثيفة من الغبار المنبعث من سير وسائط النقل البريطانية كانت تتحرك متجهة الى الشرق عبر البادية من فلسطين . وما ان وصلت شائعات هذا الخطر الجديد الى علم العدو حتى اخذ يدرك بانه يجب ان يعد العدة لمقابلة الدبابات . اما

البريطانيون فقد وصلتهم معلومات دقيقـة ، لكنهم كان يكفيهم ان يصلهم المدد بالرجال المقاتلين والمدافع فقط . وكان الرتل المتقدم بقيادة امير اللواء ج.ج. كينغستون دي . أيس ، أيم ، سي . كما كان يتألف في الحقيقة من اللواء الرابع للخيـالة الآلية المتكون من كتيبة الخيالة هاوس هولد وويلتشاير و وورويكشاير يوماتري مع سريتين من سرايا الفوج الأول وكتيبة أيسكس بالاضافة الى ثلاثة اسراب تعود الى قوة الحدود الاردنية وثماني سيارات مصفحة تعود للقوة الجوية الملكية كانت قد ارسلت على عجل من شمال افريقيا، هذا عدا شيئاً قليلاً من مدفعية الميدان والمدفعية المضادة للدبابات . وكان مع هذه القوة رجال من الجيش العربي يقومون مقام الادلاء والشبكة الواقية ، وهم مقاتلون بداة ذوو قابلية وتحمل للمشاق خياليين يقودهم كلوب باشا الذي يضاهيهم في هذه المزايا . وقد بقي هؤلاء حتى في هـذا الوقت الذي كان يبدو فيه ان الالمان هم الفائزون موالين للبريطانيين ولاءً لا يتزعزع . ولا يعد عبور البادية للجماعات العسكرية الصغيرة شيئاً صعباً على العموم . لكن عبور عـدة مئات من وسائط النقل التي يتكون منها لواء كامل عبوراً سريعـاً في وقت لم يكمل فيه تبليط طريق بغداد ـ حيفا كان لا بد ان تحصل فيه مشاكل ادارية غير يسيرة .وقد تعرض الرتل الى قصف الطائرات المعادية وتكبد بعض الاصابات ، كما عانى الجنود الذين كانوا محتشدين في لوريات ، تسير متعثرة في طرق وعرة ورمال مخطرة في شمس حارة حرارة غير اعتيادية بالنسبـة لمنتصف مايس ، مشاق ومصاعب عظمى . فوصل الرتل الى الحبانية في يوم ١٨ من الشهر فأمهل ثلاثة ايام يستعد خلالها لخوض المعركة . وفي الوقت نفسه تنفست الحامية الصعداء ، ثم بـدأت في مساء اليوم نفسه بتنفيـذ الخطة الموضوعة لاحتلال الفلوجة .

وكانت التعبئة من وضع العقيد روبرتس ، ضابط الاستخبارات الركن الذي

كان قد ارسل بالطائرة من البصرة ليتولى قيادة جميع القوات المتيسرة في الحبانية ، والذي كان يدور على الجميع ويقول لهم (عن عقيدة او عن غير عقيدة) بان العدو لا امل له مطلقاً بالتغلب عليهم وان الفلوجة ما هي الا قطعة من « الكيك » . ومع ان الحامية لم تكن تحتاج احتياجاً خاصاً لمثل هذا المسهل فقد تقبلوه تقبلاً حسناً (ومن المناسب في هذا السجل الذي تسجل فيه حوادث الحبانية ان يعترف بفضل العقيد روبرتس لتأثيره الشخصي المدهش على سير الحوادث . فقد كان نجاح الحركات يعود معظم الفضل فيه الى قوة شخصيته وقابليته في انزال الضربات بالعدو .) وكانت الخطة تتضمن في جوهرها عزل البلدة بواسطة ثلاث جماعات تتوجه في الليل فترابط في غرب البلدة وشمالها الغربي وشمالها الشرقي ، ثم الطلب الى من فيها بالاستسلام ، وعند رفض الطلب تقوم الجماعات المذكورة بالاستيلاء عليها بهجوم صاعق . كما اتفق على ان يقوم رتل آخر بهجوم مخادع على الرمادي الواقعة على بعد ١٨ ميلاً في اتجاه معاكس لتضليل العدو واشغاله عن الدفاع عن الفلوجة . وكان وجه الصعوبة (التي تضم بين طياتها بذور النجاح) في الخطة ان النهر يجري بين الحبانية نفسها والمواقع الشمالية ، في حين ان الموقع الغربي كانت تعزله ايضاً المياه التي غمر بها الثوار الأرض بكسر السدود . فاتخذت التدابير للتغلب على هذه العراقيل بأعظم ما يكون من الدقة والاحكام . وحالما أرخى الليل سدوله بدأت عملية تعبير الارتال الذاهبة الى الشمال البطيئة ، وكانت هذه الارتال التي تؤازرها جماعات صنع الجسور والاشغال التابعة للقوة الجوية الملكية تتألف من فصيل الشبانة رقم ٢ وفصيل من هنود الكركه حملة البنادق وسرب من مصفحات القوة الجوية الملكية . فقامت العبّارة التي صنعها مهندسون مهنيون وعمال ماهرون مبتدئون بعملها خير قيام حيث وصل الجميع الى مبتغاهم سالمين . وفي هذه الاثناء كان رجال الكتيبة الملكية الذين اصبح عندهم النقل

الى ساحة المعركة بالطائرات شيئاً من الاشياء الرتيبة ، يركبون في طائرات « الفالانشيا » المألوفة لديهم . وكان الترتيب ان يجرى انزالهم في الموقع الشمالي الشرقي حيث تكون السيارات المصفحة مستعدة لمساندتهم . وفي الجانب القريب من النهر كان رتل من الشبانة يقوده الكابتن غراهام المنتسب الى كتيبة « غرين هاواردز » على وشك ان يقوم ايضاً بحركة برمائية كان رجاله قد تمرنوا عليها في مسبح القوة الجوية الملكية تمريناً متواصلاً ، فوقفت دونهم جميع العراقيل الناتجة عن سوء الحظ. حيث ان بغال الحمل التي كانت تشمئز من هذا العمل للغاية عادت ادراجها الى الوراء حالما وصل الماء الى ثنّاتها ،واستعصى اخراج اللوريات التي كانت تتهجس طريقها في ظلام دامس من الحفر التي تورطت فيها ، كما قذف زورق من الزوارق كان يتلكأ في سيره ضابطاً مدفعياً مع جندي المخابرة التابع له في ماء الكسرة العميق غير ان الرجال والمدافع والذخيرة اوصلت كلها بسلام عبر المياه الفائضة بفضل الصبر والعرق ، وخلال الصمت التام الذي يتميز به الجنود المتقدمون في التدريب . وعند طلوع الفجر كانت الارتال كلها مستعدة في مواقعها المعدة للمعركة كما لو كانت الحركات كلها قد اجريت بصورة سحرية .

وكانت القوة الجوية الملكية ممتنعة حتى الآن عن قصف الفلوجة لان عدداً من السكان المدنيين كانوا لا يزالون يعيشون فيها.وعلى هذا فقد أسقطت الطائرات نشرات يُطلب فيها من البلدة ان تستسلم ويُشار فيها على المدنيين بتعليمات مفصلة الى الطريقة التي يمكنهم بواسطتها ان يتركوا البلدة فاهمل الطلب ، وعند ذاك قصفت البلدة قصفاً شديداً . وفي منتصف النهار صدر الامر لرتل غراهام بتليفون الميدان بالتقدم ودخول البلدة عنوة . فكانت تلك مهمة لا يرحب بها أحد لان الارض التي كان يتحتم المرور منها كانت مغمورة بالمياه ، كما انها كانت تحت مراقبة

مراكز رشاشات العدو وخالية من اي ستار يمكن ان يتستر به المهاجمون . على ان الهجوم لم تكن تؤازره الطيارات بقصفها فقط بل كانت تعاضده ايضاً نيران محكمة التصويب تقذف من بطارية المدفعية هويتزر من عيار (٣،٧) التي غنمت من قبل . و بعد ان اقتحم الشبانة طريقهم الى الجسر بجبهة سريتين تقدموا عابرين عليه كأنهم دبابات وليس مشاة . ثم وجدوا انفسهم وقد استولوا على الجسر والبلدة معاً من دون ان يتكبدوا اية اصابة ، فكان ذلك موضع دهشتهم .

ولم يقع الهجوم المقابل المنتظر في الحال ، وانما كان هناك ازعاج فقط من القناصة الذين كانوا يطلقون الرصاص عندما كانت الأرتال البريطانية العديدة تتقدم لاحتلال مواقع دفاعها .

غير ان هجوماً مقابلاً جازماً وقع في الساعة الثانية من صباح يوم ٢١ . وكانت في جانب العدو أشياء كثيرة تساعده ،فقد كانوا يعرفون البلدة معرفةً جيدة ،وكان لهم اصدقاء مختبئين في داخلها ، كما ان القيام بهجوم مقابل على الفلوجة كان موضوع تدريب تعبوي من دون جنود كانت قد وضعته للجيش العراقي البعثة العسكرية البريطانية . وقد اخذوا يطبقون الآن ما يطلق عليه «الحلول المدرسية» ، وكانت الحلول المدرسية ستنجح لولا ان تعترض سبيلها بعض العراقيل. فان الدبابتين اللتين تمكنتا من الدخول الى البلدة دمرت واحدة منهما بالسلاح الذي يشمئز منه المشاة البريطانيون وهو بندقية بويس ، و بقيت الاخرى تتخبط متمرغةً في حفرة قنبلة ، وفي اللحظة العصيبة التي وصل فيها العدو الى ما يقرب من الجسر هاجمهم « الراب خمسي بايجان بيكي » مع سريته من الشبانة هجوماً وحشياً بحيث أرجعهم القهقرى حالا . ثم صُد هجوم آخر من قبل رجال الكتيبة الملكية التي تكبدت اصابات كثيرة في هذا العمل . و بعد ذلك وصل امير اللواء كينغستون ، الذي كانت عنده حلول تختلف عن الحلول المدرسية لهذه المشكلة وغيرها ، ليتولى القيادة بنفسه . فقد

جيء بخيالة هاوسهولد ورجال كتيبة أيسكس لتعزيز الدفاع . وفحصت سيقان بعض الرجال المسالمين من سكان الفلوجة فوجدت آثار لفحة الشمس فيها ، مما كان يدل على ان هؤلاء كانوا يرتدون مؤخراً ملابس الجندية ، وعند ذاك اخرجوا منها. فارتاحت الفلوجة ، وصار من الممكن ان يبدأ الزحف على بغداد .

ومن الممكن ان تعتبر خطة احتلال بغداد ، بمعناها الأوسع ، تكراراً لخطة الاستيلاء على الفلوجة ولكن بمقياس أوسع بكثير . فقد قسمت القوة التي اصبحت تسمى الآن « قوة الحبانية » الى رتلين كان احدهما يعبر النهر بصبر وأناة . و بقيادة رجال « الجيش العربي » ايضاً شق هذا الرتل طريقه من الجهة الشمالية ، و بعد ان اشتبك مع العدو بالقرب من التاجي وصل الى موقع يقع في شمال الكاظمية ، التي يصلها الراكب في تراموای تجره الخيول من العاصمة بسفرة قصيرة . وفي الوقت نفسه تحتم على الرتل الجنوبي ، الذي تقرر ان يسلك الطريق الرئيس المار بالفلوجة ، ان يعبّر قافلته الطويلة المتألفة من جميع وسائل النقل عبر الاراضي المغمورة بالمياه التي كانت قد سببت مشاكل كثيرة لرتل غزاهم من قبل . وكانت هذه مهمة مضنية استغرقت وقتاً طويلاً ، لكنها كانت آخر مهمة متعبة تقريباً . فقد استسلمت قلعة خان ،النقطة التي كان ينتظر ان تسبب للرتل الزاحف العراقيل والمشاكل من دون اطلاق النار عليها . و بعد ان تبودلت نيران المدافع بين الطرفين في ضواحي بغداد وصلت جماعة من رجال العدو تطلب شروطاً للصلح (١)

---

(١) بعد ان شعر المسؤولون بحرج موقفهم وتركوا العراق الى ايران ، في مساء اليوم التاسع والعشرين من شهر مايس ١٩٤١ ، تولت « لجنة الامن الداخلي » في العاصمة زمام الامور . وقد كانت متألفة من امين العاصمة أرشد العمري ومتصرف بغداد خالد الزهاوي ومدير الشرطة العام حسام الدين جمعة والزعيم الركن حميد نصرت ممثلا عن الجيش . فأخذت على عاتقها مفاوضة السفارة البريطانية وتوسيطها لعقد هدنة مع الجيش البريطاني فتم عقد الهدنة يوم السبت المصادف ٣١ مايس

وبعد عدة ساعات وصل الضباط البريطانيون الى السفـارة التي كانت جماعة تتألف من ثلاثمئة بريطاني وهندي من ضمنهم عشرون امرأة تعيش فيها بشجاعة ومرح عيشة ضنكة لكنها منتظمة للغاية ، وهي محاطة بدائرة من الرشاشات المعادية ومزودة بالماء والكهرباء اللذين سمح بهما العدو ، وحيث كان باعة المدينة يبيعون في الحدائق الشاي والحلويات والتبغ ومواد الزينة والاعداد القديمة من جريدة « اخبار

١٩٤١ مساء . وكانت الشروط التي وافق عليها قائد القوات البريطانية كما يأتي :

١ — توقف الحركات العدائية بين الجيشين على الفور .

٢ — السماح للجيش العراقي بالاحتفاظ بجميع اسلحته ومعداته وذخائره بشرط ان تعود جميع وحدات الجيش العراقي فوراً الى مراكزها التي ترابط فيها وقت السلم .

٣ — اطلاق سراح اسرى الحرب البريطانيين من المدنيين او العسكريين او من رجال سلاح الطيران الملكي فوراً .

٤ — اعتقال جميع الاعداء — الالمان والايطاليين — المنتمين للمصالح الرسمية ، اما ما يعود لهم من المواد الحربية فتحتفظ به الحكومة العراقية لحين صدور تعليمات اخرى .

٥ — اخلاء الجيش العراقي لبلدة الرمادي خلال مدة تنتهي في الساعـة (١٢) ظهراً من يوم اول حزيران .

٦ — تقديم جميع التسهيلات الممكنة للسلطات العسكرية البريطانيـة فيما يختص بخطوط المواصلات جميعها .

٧ — تسليم جميع أسرى الحرب العراقيين الى صاحب السمو الوصي حالما يتم تنفيـذ الشروط المدرجة في الفقرات المتقدمة كما يجب .

وفي يوم ٣١ مايس ١٩٤١ اصدر رئيس لجنة الأمن الداخلي البلاغ التالي ، وهو بلاغ رقم ٤: نعلن للشعب العراقي الكريم انه في صباح يوم الجمعة المصادف ٣٠ مايس ١٩٤١ اجتاز الحدود العراقية من خانقين الشريف شرف والسادة رشيد عالي الكيلاني وعلي محمود ووكيل رئيس اركان الجيش الفريق امين زكي والعقداء صلاح الدين الصباغ وكامل شبيب وفهمي سعيد ومحمود سلمان وغيرهم ، وكذلك تبعهم في اليوم المذكور السيد يونس السبعاوي واجتاز الحدود الى ايران ايضاً . وحالما اتصل هذا النبأ بلجنة الأمن الداخلي التي كانت قد تألفت في حينه اخذت على عاتقها مسؤولية الأمر وقامت بما يلزم فوراً للمحافظة على الامن .

ولما كانت المملكة قد بقيت بدون حكومة تتولى ادارتها فقد اتصل رئيس اللجنـة السيد أرشد العمري بذوي الرأي من رجالات البلد ، كما ان مدير الحركات العقيد الركن نور الدين محمود اجتمع بالباقين من قادة الجيش فاتفقوا جميعاً وبدون استثناء على الموقف .

المساء » اللندنية .

وكانت هناك مناظر مروعة قد اعقبت الدخول الى بغداد ، حيث انقضت اسوأ عناصر الثورة على محلات اليهود في بغداد وسائر محلات السكنى وانزلت بها ضربتها الاخيرة . لكن جوقة الشبانة في الحبانية كانت تدق انغامها المألوفة، فكانت كما قال أحد الضباط بشيء من الاسى « علامةً من علامات الطمأنينة التي توشك ان تبدأ »

ونود ان نبين للشعب الكريم ان غاية الجميع تأمين اعادة الحياة الدستورية مع المحافظة على شرف المملكة وسيادتها التامة وعدم المس بأية صورة كانت باستقلالها وكيانها ، وان المساعي مبذولة الآن لانهاء القتال مع تأمين تحقيق هذه الغاية والمحافظة على شرف الجيش . والى ان يحصل اتفاق في هذا الخصوص مع الجهات البريطانية المختصة سوف تستمر القوات المسلحة على أعمالها للدفاع عن حقوق البلاد .

وبعد ان صودق على شروط الهدنة المذكورة اعلاه صدر من لجنة الأمن الداخلي البلاغ التالي ، وهو بلاغ رقم ٥ :

نعلن للجمهور العراقي الكريم بان الاتفاق قد تم بين الجبهتين العراقية والبريطانية على توقيف القتال فوراً بشروط تحافظ على كرامة البلاد واستقلالها التام وشرف جيشها الباسل وفق الاسس المبينة في البلاغ الرسمي رقم ٤ . وقد أصبحت الحالة إعتيادية من الآن ، ولذلك نطلب إلى أفراد الشعب العراقي الكريم أن يستأنفوا أعمالهم الاعتيادية بكل طمأنينة .

بغداد ٣١ مايس ١٩٤١

رئيس لجنة الأمن الداخلي

الفصل الخامس

بعـــد المعركة

●

انتهت ثورة رشيد عالي ولاقت حتفها ، وحوكم ثلاثة من قوادها (١) الخونـة فيما بعد في محاكم العراق ثم اعدموا شنقـاً من دون سخط الرأي العام او تـذمره . فـكان تمثيل المسرحية قد وُقت توقيتاً أخرق بحيث ان الممثلين الاصليين لم يحضروا قط لتمثيل الادوار التي عهدت بها اليهم الويلهلمستراسه (وزارة الخارجية الالمانية)· وقد خف أحدهم ـ ابن الفيلد مارشال بلومبرغ ـ قادماً الى بغداد بطيارة من طيارات المسرشميت ، غير ان أحد حملة البنادق العراقيين البـارع في التصويب اكثر من براعته في معرفة انواع الطيارات أصاب (٢) هذا الضابط برصاصة في رقبته أصابة مميتة قبل ان يصل الأرض من الجو . على ان المرء يجب ان لا يحسب بان العراق أمكن شطبه من الخارطة العسكرية لان عصابة من الاستغلاليين السياسيين قد حيل دون مبتغاهم . وانما الأمر هو ان الألمان قد اخفقوا في الاستيلاء على البـلاد بالدس

(١) وهم العقداء كامل شبيب وفهمي سعيد ومحمود سلمان ، أما العقيد صلاح الدين الصباغ فقد اعدم بعدهم بعد ان سلمته الحكومة التركية للعراق فيما بعد .

(٢) اصيب الموما اليه بصلية مدفع رشاش كان منصوباً فوق بناية السجن المركزي ببغـداد ، قد اطلقت النار على طيارته سهواً — المترجم .

والمؤامرات بالنظر للتهور الذي بدا من صنائعهم في الوقت الذي كان الامر يتطلب ان تساق لاحتلالهـا قوة الوير ماخت (العسكرية الالمانية) التي لا تقهر . وقد ازداد الخطر على العراق بالفعل في الاسابيع التي اعقبت قمع الحركات عندما تدفقت الجيوش الالمانية في هجومها على آخر خط من خطوط الدفاع الباسلة في كريت ، وعندما تقاطرت الجيوش الالمانية وشنت هجماتهـا في مصر وبريست ـ ليتوفسك . فكان هذا هو الخطر الحقيقي الذي تحتم على القوات الموجودة في البصرة ان تجابهه .

وكان قد وصل البصرة في يوم ٧ مايس رجل صغير الحجم أشيب الشعر قد لفحته الشمس لفحاً ظاهراً ليتولى القيادة بنفسه . وكان هذا الرجل الفريق أي . پي . كوينان سي بي ، دي أيس أو ، أو . بي . أي . الذي قدر له ان يبدأ في العراق بتقاليد خاصة في القيادة . لان المهمة التي وقعت على عاتق القيادة العراقية الايرانية (بايفورس Paiforce) ، كما اصبحت تسمى فيما بعد ، لم تكن من المهمات الاعتيادية ، كما ان أحوال الخدمة في العراق وأيران لم تكن قط احوالاً اعتيادية ..... فكانت التعليمات العسكرية الصادرة اليه من القيادة العامة في الهند تتطلب « ان ينظم ويعمر ميناء البصرة ... بحيث يجعله قادراً على استيعاب جميع القوات التي قد تتطلب الحرب ارسالها للقتال في الشرق ألاوسط ، بما في ذلك مصر وتركيا والعراق ... » وكان عليه ايضاً ان يؤمن جميع وسائل النقل والمواصلات في العراق ، بما في ذلك المطارات و يحافظ عليها بأحسن حالة . وعلى هذا فقد كانت من واجبات القيـادة الرئيسية تأسيس المؤسسات التي تشرف على خطوط المواصلات في بغـداد وحماية خطوط المواصلات التي تمتد من بغداد الى حدود شرقي الاردن غرباً والى الموصل شمالاً . وكانت من المسؤوليات الخاصة المبلغة اليها القيام بحماية مؤسسات القوة الجوية الملكية وموظفيها في الحبانية والشعيبة ، و بحماية الرعايا البريطانيين في بغداد وغيرها ، وبالمحافظة

على حقول نفط كركوك وأنابيب النفط الممتدة الى حيفا . وقد تحتم اكثر من مرة ان تبدل هذه التعليمات ، التي استطردت في تفصيل مسؤوليات اخرى اكثر وابعد مدى في مفعولها ، بتعليمات اخرى .

ولأجل توضيح عظم المهمة الملقاة على هذه القيادة لا بد لنا ان نذكر بعض التفصيلات المختصة بهذه البلاد . فان الموصل تبعد عن البصرة بمسافة تساوي تقريباً المسافة الموجودة بين كاليه والبندقية ، كما تقع بغداد في منتصف الطريق الممتد بينهما تقريباً . وفيما بين البصرة و بغداد كانت هناك مسافات شاسعة من الوحل نصف السائل الذي تتكون منه، عند ما تلفحه الشمس بحرها، طرق تشبه البحر المتموج،وهي متكونة بالتناوب من الجبس والرمل الناعم الذي لا يؤمن شره . وقد كان هناك ايضاً خط واحد من سكك الحديد ذي القياس الضيق،كان قد انشىء ببطولة خلال الحرب العالمية الاولى ، وقد قطعه الثوار الآن قطعاً متقناً . وكانت هناك ايضاً الانهر ، التي كانت تستخدم في ١٩١٥ خطوطاً ثانوية للنقل ،وهي عبارة عن سلسلة من التيارات المتبدلة السرعة والضفاف الطينية غير الثابتة مما يجعل الملاحة فيها للعدد القليل من السفن المتوفرة شيئاً بطيئاً وخطراً للغاية . وكانت هناك الى الشمال من بغداد ايضاً طرق بدائية وخط حديدي يمتد الى سوريا وتركيا لكنه خط من القياس العريض لا يمكن ان تسير فيه عربات وقاطرات الخط الضيق . هذه هي الاحوال التي كان لا بد من مجابهتها في وضع خطة لحركات الجيش الى الموصل خلال مسافة ٧٠٠ ميل . وفي منطقة الموصل طلب الى الفريق كوينان تأسيس التأسيسات لا لرتل متحرك من الجيش بل لجيش مجهز تجهيزاً كاملاً بالمعدات والأعتدة يمكنه ان يقف امام قوة من القوات الالمانية قد تقدر بخمس فرق فيقاتلها ويتمادى في قتالها حتى يتمكن من دحرها.

اما « مدينة » البصرة فهي بلدة عربية صغيرة تقع على بعد ميلين او ثلاثة

أميال من ضفة النهر ، ومن النوع الذي يمنع منها الجنود كلياً وعلى الدوام . ويوجد في مينائها العشار سوق مزدحم ، وأرصفة بدائية محاطة با كواخ محتشدة ، وجالية أوربية صغيرة تشتغل بالتجارة . وعلى بعد ثلاثة اميال شمالاً يوجد المعقل وهو نهاية سكك حديد الحكومة العراقية . وفيما عدا المطار الذي تحط فيه الطائرات الكبيرة الذاهبة في طريقها الى الهند ، ومحطة للقوة الجوية البريطانية ، توجد بناية ضخمة جميلة لمديرية الميناء تدير منها ، عن الحكومة العراقية ، شركة بريطانية ، الأحواض وسكك الحديد الجانبية الخاصة الضرورية لشحن التمور المعبأة بالصناديق والشعير المعبأ بأكياس وشيء قليل نسبياً من المشحونات الاخرى التي تصل الى ما يقرب من الخمسين الف طن في الشهر . وفيما وراء هذه الابنية يمتد نطاق من النخيل على جهتي شط العرب ، وكان هذا النخيل ينمو في أرض مرزغية حتى سنة ١٩١٤ . وفيما وراء نطاق النخيل هذا توجد البادية ، ثم البادية ، الممتدة الى مسافة ألف ميل حتى تصل البحر الاحمر . وكان هذا هو الميناء الذي يجب ان تنزّل فيه جميع متطلبات الجيش الحديث . وفي نهاية نيسان ١٩٤١ كان جميع عمال الأرصفة والاحواض مضربين عن العمل .

وقد قال أحد الانكليز ممن كان يعرف أهالي البصرة طيلة مدة حياته انهم ألطف الناس في العالم واكثرهم مسالمة . ويمكن ان يقال بصورة عامة ان الجيش البريطاني وجد القسم الاعظم منهم خائفين ومرتبكين وليس معادين . غير انه كانت توجد هناك عناصر معادية ، والقسم القليل من مثل هؤلاء يمكن ان يعمل الشيء الكثير . فقد كانت منظمة «الفتوة» في بغداد قد حذت حذو محرضيها ، فاثبتت من جديد بان الشيطنة الطبيعية الموجودة في الفتيان يمكن ان تنقلب الى عمل العصابات اذا خضعت خضوعاً كافياً للتأثيرات الخبيثة . وكان هؤلاء الاطفال قد أصبحوا موضع ازعاج كبير ، في التعرض للمسلمين واليهود والأجانب على

السواء ، بحيث اضطرت حكومة رشيد الى حلهم . الا ان مكان الفتوة قد اشغلته في الحال جمعية تسمى باسم « كتائب الشباب » ، تتألف من الطلاب الكبار ، الذين يعدون على الدوام أرضاً خصبة للدعاية السياسية ، وهذه الجمعية كانت هي المسؤولة في الدرجة الاولى عن الاستهتار الذي حصل في بغداد بعد الهدنة مباشرة . وقد كانت هناك تأثيرات مماثلة تعمل عملها في البصرة التي كان يوجد فيها كغيرها من الموانىء خليط من الاراذل والاخساء وثروة في أسواق العشار تكفي لتغذية الشره البشري الواسع الانتشار ورغبته في النهب والسلب . والحقيقة هي ان جماعة من بغداد كان قد تقرر ذهابها الى البصرة لاثارة الشغب في العشار واستغلاله استغلالاً تجارياً ، غير ان احد رجال الشرطة ممن كانوا يعرفون مصلحتهم معرفة جيدة قابلهم في المحطة وأعادهم الى بغداد في القطار التالي . وفي الوقت نفسه كان جيش رشيد ، الذي بقي قسم كبير منه في الجنوب ، قد أنشأ ربايا في مداخل مقر القوة الجوية في المعقل . كما كانت هناك جماعات كبيرة من الجيش في ثكنة الجبيلة القريبة وجماعات أخرى في ثكنة الزبير الكائنة على بعد بضعة اميال في الجهة الجنوبية الغربية . وكان قائد هذه القوات قد أعلن بعد انزال أول لواء وصل من الهند بان اي انزال آخر سوف يقاوم بالقوة ، ومع انه وافق على الانسحاب من المنطقة في يوم ٢ مايس فانه لم ينفذ ما كان قد هدد به .

. . . ومنذ الوقت الذي نزلت فيه اول قافلة من الجيش الى البر في البصرة بدأ وقوع سلسلة من الحوادث . فقد رمى الرعاع حجراً على سيارة حمل مملوءة بهنود الكوركا ، فبرهن هذا الحادث على ان رمي الاحجار على الكوركا كان عملاً خالياً من الحكمة والتعقل . ثم حطمت الشبابيك وهوجمت السيارات الخصوصية و بصق الجنود المحليون من سيارة كانت تقلهم على جماعة من الشبانة كانوا في مشية في

الطريق . كما تحتم تهريب الوصي على العرش ، الذي كان قد وصل البصرة ، الى داخل المدمرة «فالموث» ، ولم تكن مهمة ركوب الاسر البريطانية الهاربة من بغداد في السفن تخلو من وقوع حوادث مهمة قليلة الصعوبة .وقد كانت بذور الفتنة والشغب موجودة في الدرجة الاولى في العشار ، حيث حصر القنصل البريطاني مرة في معمل للسوس ، وحيث كان رئيس مهندسي الميناء على وشك ان يعامل المعاملة نفسها لو لم يبرز « بطاقة مرور » من الحكومة ، لم تكن في الحقيقة سوى بطاقة « كانتين » . وفي يوم ٧ مايس انتدبت مفرزة من جنود الكوركا عن طريق النهر لتطهير البلدة ، وقد كانت تعاضدها ذلك طائفة من مدفعيي الشبانة الذين صمدوا لجميع التهديدات والتملقات التي صبها عليهم الثوار وقاموا باعمال لا يمكن ان تثمن في المناطق المجاورة للبصرة ، بما في ذلك احتلال مسافن الميناء البحرية وتطهير ثكنات الزبير . وقد تأخر وصول حملة العشار بالنظر لحصول صعوبات ملاحية (فنادراً ما تخلو الملاحة في شط العرب من الصعوبات)ولم تدخل البلدة الا في فجر اليوم الثامن . فكان ذلك شيئاً يدعو للاسف ، لان ذلك أدى الى ان تكف الشرطة عن القيام بواجباتها ، ومع ان مهمة الحملة الشاقة قد اضطلع بها بدقة وانتظام بعد ان تبودلت النيران بينها و بين بعض الجهات بضع مرات فقد أعقب ذلك وقوع السلب والنهب الذي نهب فيه القسم الأعظم من الاسواق عن آخره، بينما كان اصحاب المخازن انفسهم متحصنين في الدور الواقعة في المحلات الاوربية.حيث اتلفت الجماهير الهائجة جميع ما كان موجوداً في الدكاكين والمكاتب وملأت الشوارع بالملفات والسجلات التجارية . وقد انقضى اليوم كله قبل ان تتضاءل هذه الحركة من تلقاء نفسها ، و بعد ذلك اخذ الجنود يحذرون و يلقون القبض على الاطفال والاولاد الذين كانوا يعرضون المنهوبات ببساطة للبيع و يأخذونهم الى السجن ، حيث كان السجناء

المدنيون يسألون بشيء من الحنق عن مصير سجانيهم . وقد استمر حصول القلاقل هنا وهناك ، لان الجنود كانوا قليلين بحيث كان من الصعب الاستغناء عنهم للقيام بالواجبات البوليسية ، وعلى هذا فان المستشفى الكبير الموجود في المعقل والذي كانت تشتغل فيه مجموعة جريئة من النساء الانكليزيات قد انيطت حمايته بمفرزة من مدفعية الميدان أعدت مدافعها لاطلاق النار في الاماكن المكشوفة . ولم تهدأ الحالة(١)

---

(١) في فجر يوم الاربعاء المصادف ٧ مايس ١٩٤١ نزلت الى العشار ثلة آلية من الجيش البريطاني وأخذت تحتل المواقع المهمة فيه فاصطدمت من أجل ذلك عدة اصطدامات حدث فيها تبادل النار . وبعد ذلك ارسل بعض الضباط الانكليز الى وكيل متصرف البصرة ، صالح حمام ، فطلبوا اليه قطع علاقته ببغداد فأبى واستؤنف احتلال العشار . وقد اذاع قائد القوات البريطانية على أهالي البصرة عدة بيانات طلب فيها منع التجمهر ودوام الموظفين في دوائرهم وفتح البنوك والمؤسسات التجارية . كما هدد الناس بالاعدام اذا أقدموا على أعمال السلب والنهب ، واعلن منع التجول ليلا من الساعة الثامنة الى الساعة الخامسة والنصف . ثم عين المستر لويد رئيس الحكام السابق ومدير جمعية التمور العام في البصرة لادارة العشار بالنيابة عنه . فأصدر هذا عدة بيانات منع فيها حمل السلاح ومنع الاستماع الى محطات الراديو المحورية والبغدادية .

وبناء على طلب وكيل المتصرف وافقت حكومة رشيد عالي ببغداد على توجه موظفي البصرة المدنيين الى بغداد وبلغ الامر اليه بذلك في يوم ١٦ مايس ١٩٤١ فنفذ الأمر . وعند ذلك كلف المستر لويد معالي المرحوم الشيخ صالح باش اعيان تولي الامن في البصرة لحين انجلاء الموقف . وفي يوم ١٧ مايس قرر المجلس البلدي في البصرة تأليف لجنة باسم « لجنة الامن في البصرة » ، وكانت تتألف من الشيخ صالح باش اعيان والسيد محمد صالح الرديني والحاج مصطفى الطه السلمان وعبد الرزاق الأمير ، لتتولى حماية الامن والمحافظة على ارواح الناس وادارة المستشفيات واعاشة المرضى والاستمرار على اطعام المساجين ومراقبة الاعمال الصحية وغير ذلك . ثم انضم الى اللجنة المرحوم الحاج محمود المعتوق النعمة . فاجتمعت في يوم ١٨ مايس واذاعت بياناً على اهالي البصرة تناشدهم فيه الاخلاد للامن والسكينة وتبين فيها واجباتها وتخبرهم انها تعمل تحت ظل صاحب الجلالة الملك فيصل الثاني والعلم العراقي المحبوب .

وبعد ان احتل الجيش البريطاني الفلوجه عاد سمو الوصي عبد الاله المعظم الى الحبانية من فلسطين في يوم ٢٠ مايس ، ثم جاء فخامة جميل المدفعي الى البصرة بتاريخ ٢٤ منه يحمل الرسالة التالية من سمو الوصي المعظم :

الى كل من يهمه الامر في الوية البصرة والعمارة والمنتفك .

لقد عدت بعون الله تعالى الى العراق وباشرت عملي كوصي شرعي على العرش العراقي ، وبالنظر

في المنطقة اخيراً الا بعد ان شكل الشيخ صالح باش اعيان ،رئيس اشراف البصرة، حكومة محلية وتعين متصرف جديد حازم هو السيد عبدالرزاق حلمي. وقدساعدهما المستر لويد أحد اصدقاء الشعب العراقي العقلاء ، والكولونيل ساركن الذي كانت جميع طبقات السكان تثق به ثقةً لا يشوبها ريب لعدة سنوات .

ولم يكن للجنود ،الذين كان يحتشدون و يجمعون اعتدتهم وتجهيزاتهم في المعقل، ما يكفي من الوقت بحيث يمكنهم ان يعبأوا بهذه الاضطرابات والقلاقل . حيث ان الشعور بانعدام الطمأنينة والامن ، الذي كانت تحدثه في النفوس اصوات اطلاق النيران او تحطيم الزجاج هنا وهناك ، لم يكن سوى عنصر ضئيل من عناصر شظف العيش الكثيرة : كالحرارة والذباب والغربة وازدحام الارصفة وعدم وجود كل شيء تقريباً .

وكانت قوات رشيد عالي لا تزال متمسكة بالطريق الى بغداد ، وعلى هذا فان ضباط لواء المشاة الهندي ٢١ الذين كشفوا على مواقعهم من الجو رأوا من الصعب عليهم ان يقوموا بالمناورات المطلوبة لان مياه الفيضان كانت تحاذي جانبي الطريق . فأخذ اللواء يتمرن على تنفيذ تعبئة المشاة بالزوارق. وكان الجيش البريطاني قد استولى

لما تتطلبه المصلحة العامة لقد انتدبت عني فخامة السيد جميل المدفعي ليمثلني في الألوية الثلاثة المنوه عنها اعلاه مزوداً بسلطة تامة لتنظيم الشؤون الادارية والعسكرية والمالية واعادة الامور الى مجاريها الطبيعية وتنظيم المحاكم وفق ما يقتضيه العدل والله ولي التوفيق .

٢٣ مايس ١٩٤١ عبد الاله الوصي

فتوجه حال وصوله الى دار المتصرفية ورفع العلم العراقي في يوم ٢٦ منه ثم اذاع بياناً طلب فيه من موظفي الحكومة العراقية ومستخدميها كافة الدوام في دوائرهم . وعندما تقوضت حكومة رشيد عالي في بغداد وفر رجالها ملتجئين الى ايران في مساء ٢٩ مايس تقرر ان يعود فخامة المدفعي الى بغداد فوصلها في يوم وصول سمو الوصي اليها بتاريخ ١ حزيران . لكنه وكل قبل مغادرته البصرة معالي المرحوم الشيخ صالح باش اعيان في مكانه — المترجم .

على قطار مسلح فأصلح شأنه بجهود واتعاب كثيرة فأصبح امر فتح الطريق بذلك شيئاً ممكناً . وفي الوقت نفسه كان هناك جيش من العمال واصحاب الحرف يكدون ليلا ونهاراً في تهيئة « اسطول دجلة » . حيث كانت قد جمعت جميع انواع وسائط النقل النهرية من بواخر نهرية قديمة ومهيلات وكل شيء آخر تقريباً يمكن ان يطفو على الماء . وبمساعدة رجال الاسطول البريطاني اصلحت وسائل النقل هذه وجعلت صالحة للاستعمال . ثم شحنت فيها المدافع ووسائل نقل اللواء ٢١ مع الاسلحة والبترول والاطعمة ومقدار (٣٢) طناً من الثلج ومخبز الميدان ، في حين شحن الشبانة مدافع الهاون ذات عيار ثلاث بوصات في الباخرة « يارا » . وفي يوم ١٢ حزيران اقلع هذا الاسطول العجيب يحرسه رف من القوة الجوية الملكية وتسانده من البر السيارات المصفحة التي اخذت تشق طريقها بين بساتين النخيل الى الكوت السيئة الطالع . وكان اللواء ٢١ قد وصل بغداد بطريق البر في اليوم نفسه ، و بعد اربعة ايام كانت مفرزة منه تدنو من بغداد محملة بالقطار . وكانت الاخبار اوانذاك قد أذيعت منبئة بالتوقيع على الهدنة .

وكان الهدف التالي الموصل ، وفيما وراء الموصل سوريا حيث كان الالمان قد دبروا ببراعة ان يحارب من اجلهم اناس آخرون .

الفصل السادس

الثورة في العراق(١)

●

كانت معاهدة ١٩٣٠ الانكليزية العراقية تنص على أننا يجب ان نحتفظ في ايام السلم ، في جملة ما نحتفظ به ، بالقواعد (٢) الجوية الكائنة بالقرب من البصرة وفي الحبانية ، وعلى حق مرور القوات العسكرية والتجهيزات المقتضية في جميع الأوقات . كما كانت تنص على اننا يجب ان تبذل لنا في أيام الحرب جميع التسهيلات (٣) الممكنة ، بما في ذلك استعمال سكك الحديد والانهر والموانىء والمطارات ، لمرور قواتنا المسلحة . وعندما اندلعت نيران الحرب قطع العراق علاقاته الديبلوماسية مع المانيا ، لكنه لم يعلن الحرب عليها ، وعندما دخلت ايطاليا الحرب لم تقم الحكومة العراقية حتى بقطع العلاقات بها . وعلى هذا اصبحت المفوضية الايطالية في بغداد

---

(١) اقتبست هذا الفصل مما كتبه المستر ونستن تشرشل رئيس الوزارة البريطانية في مذكراته المنشورة بالانكليزية في الكتاب :

Winston's Churchill
The Second World War Vol. III
Ch XIV , P 224 — 237.
Cassell & Co, 1950 — London .

(٢) و (٣) راجع هوامش الفصل الثالث .

المركز الرئيسي لدعاية المحور ولتغذية الشعور المناوىء لبريطانيا . وقد ساعدها في ذلك مفتي القدس ، الذي كان قد فرّ من فلسطين قبيل نشوب الحرب والتجأ الى بغـداد بعد ذلك .

وبانهيار فرنسا ووصول لجنة الهدنة المحورية الى سوريا انحط شأن النفوذ البريطاني الى اسفل الدركات فأثار هذا الوضع كثيراً من القلق في نفوسنا . لكننا لما كنا منشغلين في جهات أخرى كان أمر اتخاذ تدابير عسكرية شيئاً خارجاً عن الصدد ، وبات لزاماً علينا ان نسيّر الامور بأحسن ما نستطيع عليه . وفي مـارت ١٩٤١ حصل انتكاس ازدادت به الحالة سوءاً . حيث أصبح رشيد عالي الذي كان متصلاً بألمانيا رئيساً للوزارة ، وأخذ يدبر مؤامرة مع ثلاثة من ضباط العراق البارزين الذين اطلق عليهم « المربع الذهبي » . وفي نهاية شهر مارت فرّ الوصي الميال الى الانكليز الأمير عبد الاله من بغداد .

فاصبح مهماً اكثر من أي وقت آخر ان نتأكد من بقاء البصرة بأيدينا ، وهي ميناء العراق الرئيسي المطل على الخليج الفارسي فكتبت الى وزير الهنـد ما يـلي :

من رئيس الوزراء الى وزير الهند ٨ نيسان ١٩٤١

كنتم قد اقترحتم قبل مدة انكم في وسعكم ان تستغنوا عن فرقة اخرى من جيش الحدود لترسل الى الشرق الاوسط . لقد تردت الحالة في العراق ، وبات من الواجب علينا ان نتأكد من أمر الاحتفاظ بالبصرة لان الامريكيين يزداد اهتمامهم بتأسيس قاعدة جوية كبيرة للتجمع هناك ليتمكنوا من ارسال القوات والامدادات اليها مباشرة . ويبدو ان هذه الخطة لها أهمية عظيمة بالنظر لاتجاه الحرب غير المشكوك بها في الشرق .

ولقد أخبرت رؤساء أركان الحرب بانكم سوف تنظرون في امكانيات هذه الخطة . وقد كانت لدى الجنرال اوكينليك أيضاً آراء عن امكان الاستغناء عن بعض القوات الاضافية المناطة بعهدته .

فأبرق المستر امري بهذا المعنى الى حاكم الهنـد في اليوم نفسه ، وابدى اللورد لنليثو مع القائد العام الجنرال اوكنليك استعدادهما لان يسوقا الى البصرة في الحال

لواءً من المشاة وكتيبة من مدفعية الميدان ، وكان معظم هذه القوة محملاً في باخرة كانت متجهة الى الملايو . واتخذت التدابير لان يشفعا ذلك بارسال قوات اخرى بأسرع ما يمكن . وقد نزل اللواء في البصرة من دون معارضة في ١٨ نيسان ، بمحافظة فوج بريطاني نقل بطريق الجو وانزل في الشعيبة قبل وصول اللواء بيوم واحد . ثم طلب الى حكومة الهند ان تتابع ارسال لوائين آخرين كانا مخصصين لبلاد الملايو بأسرع ما يمكن .

من رئيس الوزراء الى الجنرال أيزمي ، عن لجنة رؤساء أركان الحرب وجميع من يعنيهم الامر
٢٠ نيسان ١٩٤١

يجب ارسال القوات بأسرع ما يمكن الى البصرة . كما يجب ان يعجل على الأقل بارسال الألوية الثلاثة التي وعد بأرسالها الى هناك في اول الأمر .

ثم :

من رئيس الوزراء الى وزير الخارجية
٢٠ نيسان ١٩٤١

يجب ان يوضح للسر كيناهان كورنوالس [١] ان مصلحتنا الرئيسية من ارسال القوات الى العراق هي حماية وتأسيس قاعدة تجمع كبيرة في البصرة ، وان ما يحدث في داخلية البلاد ، عدا في الحبانية ، يعد في الوقت الحاضر شيئاً ليست له الا ارجحية ضئيلة تماماً . حيث ان حقوقنا التي تنص عليها المعاهدة قد استغلت لحماية هذا النزول ولتحاشي اراقة الدماء ، لكننا كنا مستعدين لاستعمال القوة الى اقصى حد ممكن لتأمين نزول الجيش لو كانت الضرورة تدعو لذلك . وعلى هذا فان وضعنا في البصرة لا يستند على الحق الذي تخولنا به المعاهده فقط بل على الحوادث الجديدة الناشئة عن ظروف الحرب ايضاً . وليس من الممكن اعطاء اي تعهد [٢] عن ارسال اقوات الى بغداد او نقلها عبر البلاد الى فلسطين ، كما ان الحق الذي تستند عليه المطالبة بمثل هذا التعهد يجب الا يعترف به تجاه حكومة كانت هي نفسها قد اغتصبت الحكم عن طريق الانقلاب ، او في بلاد كانت حقوقنا التي تنص عليها المعاهدة قد الغيت فيها منذ مدة الغاء معنويا . على ان السر كيناهان كورنوالس يجب ان لا يورط نفسه بالتفسير والتوضيح .

وعندما قام سفيرنا بأخبار رشيد عالي على هذا الاساس بان بواخر اخرى ستصل

---

(١) السفير البريطاني في بغداد الذي وصل بغداد في بداية الحوادث — المترجم

(٢) كان رشيد عالي ورؤساء الجيش يطالبون الانكليز بتقديم تعهد يتعهدون فيه بان الجيوش التي تنزل في البصرة يجب ان تتحرك في الحال وتعبر الى خارج العراق — المترجم

البصرة في الثلاثين من الشهر كان جوابه انه لا يستطيع ان يسمح بنزول أية قوات أخرى حتى تكون القوات الموجودة في البصرة قد غادرت الميناء . وقد اوعز للجنرال اوكينليك بان القوات يجب ان تستمر على النزول برغم ذلك ، فاضطر رشيد عالي الذي كان يعوّل على مساعدة الطيارات الالمانية ، وحتى على القوات الالمانية التي تنقل بطريق الجو ، الى اتخاذ تدابير عملية .

وكانت اول حركة عدائية بدرت منه موجهة نحو الحبانية ، قاعدة تدريب قوتنا الجوية الكائنة في البادية العراقية . وكان قد اخلي بالطيارة الى الحبانية في ٢٩ نيسان ٢٣٠ امرأة وطفلاً من البريطانيين الموجودين في بغداد . فبلغ مجموع الموجودين هناك ما يزيد على (٢٢٠٠) مقاتل ولا اقل من (٩٠٠٠) من المدنيين. وعلى هذه الشاكلة اصبحت مدرسة الطيران التدريبية مركزاً ذا اهمية خطيرة . وقد اتخذ نائب مارشال الجو سمارت الذي انيطت بعهدته القيادة هناك احتياطات آنية جريئة لمواجهة الوضع المتأزم . وكان تحت تصرف مدرسة التدريب الموجودة هناك طُرُز خاصة من الطائرات تصلح للتدريب ، لكن عدداً من الطائرات المقاتلة كانت قد وصلت من مصر فنسق الخليط المتيسر المتكون من اثنتين وثمانين طائرة من جميع الانواع في اسراب اربعة . كان فوجاً بريطانياً كان قد نقل بالطائرات فوصل الحبانية في اليوم التاسع والعشرين. اما وسائل الدفاع الارضي في محيط المعسكر البالغ طوله سبعة اميال فقد كانت تقتصر على سياج من الاسلاك الشائكة ، وهي وسيلة دفاعية غير وافية بالمرام . وفي الثلاثين من الشهر بانت القوات العراقية الواصلة من بغداد على بعد يقارب الميل الواحد بالكاد فوق الهضبة المشرفة على المطار والمعسكر معاً. وقد تعززت هذه القوات في الحال بقوات اخرى من بغداد فبلغ عدد الجنود قرابة (٩٠٠٠) مقاتل مع خمسين مدفعاً . وقد انقضى اليومان التاليان بمفاوضات ومداولات غير

مثمرة ، ثم بدأ القتال في فجر اليوم الثاني من شهر مايس .

ولقد أبدى الجنرال ويفل (١) منذ بداية الخطر الجديد الذي اخذ يتهددنا احجاماً شديداً في الاضطلاع باعباء اضافية . حيث اخبرنا بانه سوف يتخذ استعدادات من شأنها ان تولد انطباعاً بان قوة كبيرة تعد للعمل من فلسطين ، مما قد يكون له بعض التأثير على الحكومة العراقية . وقد كان يرتئي ان القوة التي يستطيع اعدادها سوف تكون غير وافية بالمرام ومتأخرة عن الوقت المناسب معاً . حيث لا يمكنها ان تباشر بعملها الا بعد اسبوع واحد على الأقل ، كما ان زحفها الى العراق سيضعف فلسطين بدرجة مخطرة خاصة وان التحريض على الثورة هناك قد سبق وبانت نذره . فقد كتب يقول : « كنت قد حذرتكم باستمرار بانني لا يمكنني ان اقدم أية معونة من فلسطين لتدارك الوضع في العراق في الظروف الحاضرة ، كما كنت أشير عليكم على الدوام بتحاشي التورط بأي شيء هناك .... حيث ان القوات المناطة بعهدتي قد بلغ توزيعها أقصى حد ممكن في كل مكان ، ولا يسعني بالمرة ان اجازف بأرسال قسم منها الى حيث لا يمكن ان يكون لها أي تأثير . »

اما في سوريا فقد كانت موارد القوة شحيحة على الشاكلة نفسها . حيث ان القواد العامين في الشرق الاوسط كانوا قد أشعرونا ان اكبر قوة يمكن ان يُستغنى عنها في سوريا حتى يتم تجهيز الاوستراليين هي قوة تتألف من لواء خيالة آلي واحد ، وكتيبة مدفعية واحدة ، وفوج من المشاة ، على ان لا تتورط تلك القوة في العراق . ولم يكن من الممكن ان ينتظر من هذه القوة ان تقف في وجه الجيوش التي تتمكن المانيا من سوقها الى سوريا ، كما انها يجب ان لا ترسل الى هناك ما لم يبد الأفرنسيون

(١) القائد العام للقوات البريطانية في الشرق الاوسط التي كانت تقف في وجه قوات المحور الزاحفة من ليبيا — المترجم .

الفيشيون مقاومة فعلية . واذا تقرر الدخول الى سوريا والتوغل فيها سيكون من الأفضل على وجه التأكيد ان تكون الجيوش الداخلة جيوشاً بريطانية في اول الامر وليس جيوشاً تعود لفرنسا الحرة التي سوف يلاقي تدخلها سخطاً مراً .

وفي ٤ مايس ارسلنا للجنرال ويفل بمقرراتنا عن الوضع في العراق :

ان التورط في العراق كان شيئاً لا مناص منه . فقد كان لزاماً علينا ان نؤسس قاعدة في البصرة، وان نسيطر على ذلك الميناء لنحافظ على سلامة النفط الايراني عندما تدعو الحاجة لذلك .
ثم ان خط المواصلات الذي يمر عبر العراق الى تركيا قد أصبحت له اهمية أعظم بالنظر لتفوق الألمان في جو بحر ايجة .. ولو لم نبعث بالقوات اللازمة الى البصرة فان الوضع الحالي في الحبانية كان يمكن ان ينشأ بوجيه من المحور ، وكان سيترتب علينا ايضاً ان نواجه مقاومة في النزول الى البصرة بعد ذلك بدلا من ان يكون في وسعنا تأمين رأس جسر هناك من دون مقاومة .... وليس هناك وجه لقبول العرض الذي تقدمت به تركيا للتوسط ، حيث لا يمكننا التنازل عن أي شيء . على ان سلامة مصر تبقى امراً يأتي في الدرجة الاولى من الاهمية . غير انه من الاساسي لنا ان نبذل جميع ما في وسعنا لننقذ الحبانية ونحافظ على انابيب النفط الممتدة الى البحر الأبيض المتوسط .

وقد بقي الجنرال اوكينليك الى ١٠ حزيران يبدي استعداده لتقديم الامدادات بحيث لا تتجاوز الخمسة ألوية من المشاة اذا كان من الممكن اعداد البواخر اللازمة لنقلها ، فسرنا موقفه المشجع هذا . لكن الجنرال ويفل لم يطع الأوامر الا بعد ان قدم احتجاجاً عليها . فقد كتب يقول في اليوم الخامس : « ان رسالتكم لا تعبأ الا قليلاً بالواقع . يجب عليكم ان تواجهوا الحقائق ». فقد كان يشك فيما اذا كانت القوات التي كان يعدها هو بنفسه قوية بدرجة تكفي لاسعاف الحبانية وانقاذها ، او اذا كان في وسع الحبانية ان تصمد الى حين وصول تلك القوات اليها في يوم ١٢ من الشهر . حيث اشار قائلاً : « أشعر بان من واجبي ان احذركم بأخطر لهجة ممكنة بانني اعتبر ان القتال اذا استطال امده في العراق فانه سوف يعرض الدفاع عن فلسطين ومصر الى الخطر . حيث ان التأثيرات السياسية سوف لا يمكن حصرها عداً ، وقد تؤدي الى ما كنت اتحاشى وقوعه خلال مدة تقارب السنتين ، وهو وقوع اضطرابات

داخلية خطيرة في قواعدنا . وعلى هذا فانى استحثكم بأشد ما يمكن من جديد على التوصل بالمفاوضة الى حل من الحلول بأسرع ما يمكن » فلم اقتنع بذلك .

من رئيس الوزارة الى الجنرال ايزمي
عن لجنة رؤساء اركان الحرب ٦ مايس ١٩٤١

ان البرقيات الواردة من الجنرال ويفل والجنرال اوكينليك يجب ان ينظر فيها في الحال ،وان يقدم الي تقرير عما تتوصلون اليه في مجلس العوام قبل وقت الغداء اليوم .

والنقاط التالية تستدعي الالتفات :

١ ـــ لماذا تعتبر القوة المذكورة ، التي يبدو انهـــا غير قليلة ، غير كافية للوقوف أمام الجيش العراقي ؟ ماذا تقولون انتم في هذا الشأن ؟ انه من الغريب ان يحتفظ بفرقة الخيالة في فلسطين على طول الوقت من دون البدء بتشكيل رتل سيار !

٢ ـــ لماذا يتحتم على القوة الموجودة في الحبانية ان تستسلم قبل يوم ١٢ مايس ؟ ان الخسائر التي منيت بها كانت قليلة بالنظر لما ورد في التقارير الواردةحتى الآن . كما ان مشاتها قد قامت بهجوم للخارج في الليلة الماضية ، وقـد قيل لنا بان القصف الذي تتعرض اليه الحبانية يقف عندما تظهر طائراتنـا في الجو . ولذا يجب انتبذل القوة الجوية جهوداً جبارة لمساعدة الحبانية وتشجيعها . ولا شك ان قوة اضـافية من المشاة يمكن ان تنقل عن طريق الجو الى هناك من مصر لامداد القوة الموجودة من قبل ؛ يجب اصدار اوامر مشددة لقائد الحبانية بالصمود .

كيف يمكن التفاوض من أجل الوصول الى حل من الحلول كما اقترح الجنرال ويفل ؟ فما قولكم اذا أصر العراقيون ، بتحريض من الالمان ، على اخلائنا البصرة او نقل القوات بقطعات صغيرة تحت رحمتهم عبر البلاد الى فلسطين . فمن رأي الضابط البحري الأقدم في البصرة ان وقوع الانهيـار أو الاستسلام سيؤدي الى حصول كارثة ، وهذا هو رأي حكومة الهند أيضاً . اني منزعج للغاية من موقف الجنرال ويفل . حيث يبدو وكانه قد فوجىء على حين غرة من جناحه الشرقي بقدر ما فوجىء من جناحه الغربي ، وبرغم العدد الجسيم من الرجال الموجودين تحتتصرفه والقوافل العظيمة التي اخذت تصل اليه يبدو انه لا يزال ضنيناً جداً بالافواج والسرايا . لقـد حصل عندي انطباع عنه بانه قد تعب .

ان مقترحات القائد العام في الهند بأرسال الامدادات الى البصرة تستحق النظر فيها بكل تشجيع .

***

وبتأييد من رؤساء اركان الحرب عرضت الامر على لجنة الدفاع في اجتماعها المنعقد وقت الظهر . وقـد خيم على الاجتماع جو من الحزم والتصلب . فصدرت

الاوامر التالية بايعاز منها :

من رؤساء اركان الحرب الى الجنرال ويفل ومن يهمه الامر ٦ مايس ١٩٤١

لقد نظرت لجنة الدفاع ببرقيتكم الواصلة يوم امس . ان حسم القضية عن طريق المفاوضة لايمكن ان يلتفت اليه الا على اساس قمع العراقيين مع اتخاذ التدابير الواقيــة ضد الخطط (١) التي يتخذها المحور بالنسبة للعراق . ويدل واقع الحال بالنسبة للوضع الحاضر ان رشيد عالي كان يمشي مع دول المحور يداً بيد طوال هذه المدة ، وهو الآن ينتظر الوقت الذي تتمكن فيه هذه الدول من مساعدته قبل ان يسفر عن نياته . غير ان نزولنا في البصرة قد أحبط مسعاه واجـبره على السير وهو يجرر رجليه قبل ان تكون دول المحور مستعدة لمساعدته . وعلى هذا فهناك فرصة ممتازة لاعادة المياه الى مجاريها بالعمل الجريء اذا تم من دون تأخير .

ولذلك اشار رؤساء الأركان على لجنة الدفاع بانهم مستعدون لتحمل مسؤولية سوق القوة المشار اليها ببرقيتكم بأقرب لحظة ممكنة . وتشير لجنة الدفاع عليكم بان تشعروا نائب مارشال الجو سمارت بان المساعدة ستصله عاجلا ، وعليه في الوقت نفسه ان يدافع عن الحبانية حتى النهاية . وبعد اتخاذ مايلزم للمحافظة على سلامة مصر يجب ان يبذل اقصى ما يمكن من التعضيد الجوي للحركات العسكرية التي تجري في العراق .

* * *

وقد تآزرت في الوقت نفسه اسراب مدرسة التـدريب الجوي في الحبانية مع قاصفات ويلينغتون الموجودة في الشعيبة ، في رأس الخليج الفارسي ، في مهاجمة القوات العراقية المرابطة فوق الهضبة. فردت القوات العراقية على هذا الهجوم بقصف الابنية الموجودة داخل قاعدة الحبانية ، وقد تآزرت معها طياراتهم بقصف القنابل و نيران الرشاشات . فقتل او جرح حوالي الاربعين من رجالنا في ذلك اليوم ، كما دمرت أو عُطلت عن العمل اثنتان وعشرون طيـارة . و برغم الصعوبة التي كانت تواجهها طياراتنا في القيام من مطاراتها استمر رجالنا الجويون على القيام بهجماتهم . ولم يقم مشاة العدو بأي هجوم ، ثم اسكتت مدفعيتهم بالتدريج . وقد اكتشف بان رجال مدفعية العدو لا يمكنهم الصمود في وجه الهجوم الجوي ، او حتى عندما تلوح

(١) لقد جاء في الكتاب نفسه ان هيس مساعد هتلر الذي نزل بالطائرة في انكلترا خلال الحرب صرح عند استجوابه ان المانيا كانت تطلب ان يعامل العراق معاملة خاصة اذا تصالح الطرفان — المترجم

طياراتنا محلقةً فوق رؤوسهم . فاستغلت عصبيتهم وارتباكهم الى اقصى حد ممكن ، واصبح من الممكن منذ يوم القتال الثاني توجيه قسم من مجهودنا الجوي لمنازلة القوة الجوية العراقية وقواعدها . وفي ليلتي اليومين الثالث والرابع من مايس تحركت الدوريات البرية المهاجمة من الحبانية لغزو خطوط العدو ،وما حل اليوم الخامس حتى كان العدو قد لاقى الأمرين بعد اربعة ايام من الهجوم الجوي المستمر الذي قامت به القوة الجوية الملكية . فانسحبوا تلك الليلة من الهضبة التي كانوا مرابطين فيها وقد تعقبتهم قواتنا فأثمر العمل الناجح الذي جرى في هذا التعقيب بوقوع (٤٠٠) اسير في ايدينا مع دزينة من المدافع وستين رشاشاً وعشر سيارات مصفحة . وبينما كان رتل من الجيش يزحف من الفلوجة للنجدة تصدت له في الطريق اربعون من طياراتنا كانت قد ارسلت من الحبانية لهذا الغرض فقضت عليه . وعلى هذا فما حل اليوم السابع من مايس حتى كان حصار الحبانية قد انتهى امره . وكان المدافعون قد انجدوا بطيارات مقاتلة من مصر ،وكان النساء والاطفال البريطانيون قد اجلوا بطريق الجو الى البصرة ، كما ان القوة الجوية العراقية المؤلفة من حوالي ستين طيارة قد دمرت جوهرياً . ولم تصلنا هذه الانباء السارة الا بصورة متأخرة ،وقد وصلت شيئاً فشيئاً.

من رئيس الوزراء الى نائب مارشال الجو سمارت — ٧ مايس ٩٤١

ان اعمالكم الباهرة الدالة على النشاط والقوة قد أعادت المياه الى مجاريها على الأغلب . نحن نتطلع كلنا الى القتال العظيم الذي تقومون به. سترسل اليكم جميع المساعدات الممكنة. استمروا على الكفاح.

* * *

من رئيس الوزراء الى الجنرال ويفل — ٧ مايس ٩٤١

يبدو ان الوضع في الحبانية قد تحسن كثيراً ، وان العمل الجريء الذي تتخذونه الآن ضد العراقيين قد يسحق الثورة قبل وصول الالمان . ففي وسعهم من دون شك ان يطيروا الى هناك رأساً بقاصفات ثقيلة ، ولكن هذه القاصفات سوف لا تتهيأ لها التسهيلات اللازمة ولذلك فانها سوف لا تستطيع ان تعمل عملها لمدة طويلة . على اننا يجب ان نسارع الى منع حصول التأثير المعنوي الذي يتولد عن وصولها بضربة ماحقة . وانني اعتقد بان منطقتي الرطبة والحبانية اذا تم تطهيرهما فان

رتلنا سوف يستولي على بغداد أو يستغل الظفر الحاصل الى اقصى مداه . وسترسل اليكم برقيات اخرى حول تحريك القبائل واستثارتها وحول سياسة الحكومة .

وقد أجاب الجنرال ويفل رؤساء أركان الجيش مباشرة بما يلي :

٨ مايس ١٩٤١

أظن انكم يجب ان تقدروا محدودية الحركات العسكرية في العراق خلال الأشهر القليلة التاليةمن دون ان يتيسر فيه وضع سياسي مؤات . ففي وسع القوات القادمة من الهند ان تؤمن المحافظةعلى البصرة لكنها لا تستطيع ، بحسب ما أرى ،أن تزحف نحو الشمال ما لم يؤمن تعاون العشائر والسكان المحليين تأميناً تاماً . وفي وسع القوة الزاحفة من فلسطين ان تفك الحصار عن الحبانية وتستولي على مداخل بغداد لتمنع أي تقدم آخر قد يحصل نحو الحبانية ، لكنها غير قادرة على دخول بغداد في وجه المقاومة التي ستلقاها ولا على الاحتفاظ بمركزها هناك ... وعلى هذا فرغبة في تحاشي التورط في أعمال عسكرية قد تجري بمقياس واسع في بقعة غير حيوية لا أزال أوصي بالسعي لايجاد حل سياسي باستعمال جميع الوسائل المتيسرة .

ومع اني كنت ادرك مقدار الحذر الذي كان يخالج نفس الجنرال ويفل واقدر تفانيه من اجل الواجب تماديت في الضغط عليه بشدة .

من رئيس الوزراء الى الجنرال ويفل ٩ مايس ١٩٤١

١ — لقد نظرت لجنة الدفاع ببرقيتكم المؤرخة في ٨ مايس حول الوضع في العراق . ان المعلومات التي وصلت لنا تفيد بان رشيد عالي واتباعه باتوا في مأزق يائسة . ومهما كانت الحالة هناك عليك ان تقاتل بشدة ضدهم . فمن الواجب ان يزحف الرتل الآلي الذي يجري تشكيله في فلسطين في الوقت الذي أسبتموه انتم ، او قبل ذلك ان امكن ، لينازل العدو في ارطبة او الحبانية . وعندما ينضم الى القوات الموجودة في الحبانيـة يجب ان تستغلوا الوضع الى اقصى مداه من دون ان تترددوا في ان تحاولوا النفوذ الى بغداد ولو بقوات صغيرة جداً ، وان تقوموا بنفس النوع من المجازفات التي تعود الألمان القيام بها والاستفادة منها .

٢ — ليس هناك وجه للتفاوض مع رشيد عالي ما لم يقبل في الحال بالشروط الواردة في برقية رؤساء أركان الجيش . حيث ان هذه المفاوضات لا تؤدي الا الى التأخير الذي قد تصل خلاله القوة الجوية الالمانية . ونحن لا نعتقد ان أية قوة بربة قد يكون في وسعك سوقها الى العراق سوف تؤثر في الحال على مشكلتك في الصحراء الغربية . حيث ان القوة الجوية يجب ان تبذل جهدها في حماية الوضعين معاً . فليس على تيدر [1] ان يمتنع عن التعضيد الجوي الضروري للاعمال الحربية في العراق الا في حالة اشتباكك الفعلي او ازمعت على القيام بهجوم في الصحراء الغربية .

---

(١) قائد القوة الجوية — المترجم .

وقد حاولت تطمين الجنرال ويفل باننا لا ننوي القيام بأعمال واسعة النطاق وباننا نسعى فقط لمعالجة الحاجات الآنية . فكتبت قائلاً :

ولست بحاجة الى ان تشغل نفسك كثيراً بمستقبل العراق الطويل . حيث ان واجبك العاجل هو ان تنصب فى بغداد حكومة صديقة ، وان تقضي على قوات رشيد عالي بأكثر ما يمكن من الشدة . فنحن لا نرغب في الوقت الحاضر في أي تقدم واسع النطاق الى الشمال من البصرة ، كما اننا لم نوعز باحتلال كركوك أو الموصل . ثم اننا لا ننشد إجراء أي تبدل في وضع العراق المستقل ، ولقد اعطيت تعليمات وافية تتفق مع رأيك في هذه النقاط . لكن الشيء الذي نهتم به هو العمل ، أي تقدم الرتل الآلي الخاطف لتحقيق الاتصال الفعال بين بغداد وفلسطين . وكل يوم في هذا الشأن له قيمته، لأن الألمان قد لا يتأخر وصولهم كثيراً . وقد كنا نأمل ان الرتل المذكور سيكون مستعداً للزحف في اليوم العاشر من الشهر حتى يصل الحبانية في الثاني عشر منه على فرض ان يكون في مقدور الحبانية ان تصمد ، ففعلت ذلك واكثر منه بكثير . ونحن واثقون بان هذين التاريخين قد روعيا ، وانكم سوف تبذلون قصارى جهدكم لتعجيل الحركة .

فاستجاب ويفل ببسالة لكثير من الطلبات المتألبة التي وصلته في هذا الشأن . فكتب في الثالث عشر من الشهر يقول : « لقد أمرت جميع الدبابات المتيسرة بالانضمام الى قوة غوت ومهاجمة العدو في منطقة السلوم من دون ان انتظر « النمر »[١] ... واذا سارت الامور على ما يرام في الصحراء الغربية سأحاول سوق قوات أخرى الى فلسطين لتذهب من هناك الى العراق .. وسوف نحاول تصفية مشكلة العراق المتعبة هذه بسرعة ... وانا باذل جهدي لتقوية كريت ضد الهجوم الذي يوشك ان يقع . وقد بحثت قضية سوريا مع كاترو بعد ظهر اليوم هذا . »

* * *

وما حل هذا الوقت حتى كان « النمر » قد بدأ يصل الاسكندرية سالماً ، وقد عقدت آمال كثيرة من شأنها ان تؤدي الى نتائج حسنة في كريت ، والصحراء الغربية ، وفي سوريا . وقد صحبت هذه المخاطر المتشابكة مصائر مختلفة .

---

(١) اسم يطلق على خطة حربية وضعت لتنفذ في وقت معين بقصد امرار قافلة من مالطة الى الاسكندرية — المترجم .

من رئيس الوزراء الى الجنرال اوكينليك ١٤ مايس ١٩٤١

١ — انا مسرور جداً لانك ستجتمع بويفل في البصرة . انه سيخبرك بما يقتضي عن « النمر » و « سكورتشر » (الدفاع عن كريت) . ان حصولنا على نصر واحد في ليبيا سوف يغير جميع القيم في العراق ، في عقول الألمان والعراقيين معاً .

٢ — نحن ممتنون للغاية منك بالنظر للجهود المثمرة التي بذلتها في قضيـة البصرة . حيث ان القوات التي تستطيع الهند حشدها هناك كلما كانت اقوى كان ذلك أحسن الينا . لكننا لم نشعر حتى الآن باننا قادرون على توريط انفسنا بأي تقدم الى الشمال في اتجاه بغداد ، كما اننا اقل قـدرة على احتلال كركوك او الموصل بالقوة . وسوف لا يمكن التفكير في هذا الشأن حتى نرى ما سيحدث حول « النمر » و « سكورتشر » . وعلى هذا فاننا نقتصر الآن على محاولة تنصيب حكومة صديقة في بغداد وتشييد أعظم رأس جسر في البصرة . كما اننا أقل قدرة على ان نحاول السيطرة على سوريا في الوقت الحاضر ، مع ان الافرنسيين الاحرار يمكن ان يسمح لهم ببذل قصارى جهدهم هناك . غير ان دحر الألمان في ليبيا هو الامر المفضل على كل شيء ، ولا يمكن النظر بأي شيء اكثر جسامـة وأطول مدى حتى يتحقق ذلك الامر . حيث ان كل شيء سيكون أسهل بكثير عند ذاك .

* * *

وقد يكون من الأحسن ان أبادر الى اكمال قصـة العراق قبل وقوع الحوادث الدامية في كريت برغم كونها كانت أقل خطراً علينا .

فقد وصلت مقدمة القوة المنجدة « قوة الحبانية » ، المتألفة من لواء آلي تحرك من فلسطين ، الى الحبانية في الثامن عشر من شهر مايس لتستأنف هجومهـا على العدو الذي كان يومذاك متمسكاً بجسر الفلوجة المنصوب على الفرات . ولم يكـن العراقيون في هذا الوقت هم العدو الوحيد الذي كنا نجابهه هناك . حيث ان وجبـة من الطيارات الألمانية كانت قد ركزت نفسها في مطار الموصل في يوم ١٣ مايس ، وعلى هذا فقد ترتب على قوتنا الجوية منذ ذلك الوقت فصاعداً ان تهاجم تلك الطيارات وتمنع تجهيزها بواسطة سكة الحديـد القادمة من سوريا . وقـد هاجمت الفلوجة مقدمة « قوة الحبانية » التي كانت تؤازرها القوة البرية الموجودة في حامية الحبانية يوم ١٩ مايس . فكانت المياه الفائضـة من النهر تعيق الاتصال المباشر من جهـة

الغرب ، وعلى هذا فقد سيقت ارتال صغيرة محمولة على جسر عائم الى شمال البلدة لقطع خط الرجعة على المدافعين عنها ، كما انزلت قوة اخرى من الجو لسد الطريق الموصل الى بغداد . وقد كان من المنتظر بان القيام بهذه الحركة ، التي يعاضدها القصف الجوي ، سيجعل قوات العدو البالغة لواءً واحداً تستسلم أو تتفرق . لكن النتيجة جعلت من الضروري القيام بهجوم بري . فصدرت الاوامر للقوة الصغيرة التي كان واجبها منحصراً بمنع تدمير الجسر بنيران البنادق بان تشن الهجوم ،ففعلت ذلك بنجاح من دون ان تتكبد أية خسائر . حيث تراجع العدو واُسر (٣٠٠) أسير. ثم صُد هجوم مقابل قام به العدو بعد ثلاثة أيام .

وقد استغرقت الاستعدادات اللازمة للزحف النهائي على بغداد بضعة أيام كانت خلالها اعمالنا الجوية ضد القوة الألمانية الجوية المتمركزة في مطارات العراق الشمالية قد سحقت في النهاية الجهود التي كانت تبذلها تلك القوة . و بعد ذلك ظهر في الجو سرب ايطالي من الطائرات المقاتلة لكنه لم يتوفق لعمل شيء . أما الضابط الألماني الذي انيط بعهدته أمر تنسيق الارتباط بين عمل أسراب المحور الجوية وعمل القوات العراقية ، ابن الفيلد مارشال بلومبرغ ، فقد نزل الى بغداد من الجو بعد ان اصيب برصاصة في رأسه من صلية أطلقها على طيارته حلفاؤه خطأً . ولم يتمكن خلفه الجنرال فيلمي ، الذي رافقه الحظ فنزل سالماً بالطيارة نفسها، من عمل شيء يذكر . حيث كانت التعليمات المشددة الصادرة اليه من هتلر مؤرخةً في ٢٣ مايس ، وهو الوقت الذي أصبح فيه تدخل المحور بصورة مفيدة شيئاً لا قيمة له .

تعليمات هتلر رقم ٣٠ ، الشرق الأوسط المقر العام في الميدان

٢٣ مايس ، ١٩٤١

ان حركة تحرر العرب في الشرق الاوسط هي حليفتنا الطبيعية ضد انكلترا . وعلى هذا فان ايقاد نار الثورة في العراق له اهمية خاصة في هذا الشأن . ومن الواجب ان تمتد هذه الثورة عبر

الحدود العراقية لتعزيز موقف القوات المعادية لانكلترا في الشرق الأوسط، ولقطع خطوط المواصلات البريطانية ، واشغال الجيوش الانكليزية والبواخر الانكليزية معاً على حساب ميادين الحرب الاخرى. ولهذه الأسباب قررت نقل الحركات الحربية في الشرق الأوسط عن طريق المبادرة الى مؤازرة العراق . أما كيف يكون من الممكن بعد ذلك القضاء على مكانة الانكليز بين البحر الأبيض المتوسط والخليج الفارسي ، ارتباطاً بالهجوم على قناة السويس ، فان علمه عند الله ...

وقد بدأ الزحف على بغداد في ليلة ٢٧ مايس ، فكان التقدم بطيئاً تعيقه المياه التي كانت تغمر مساحات شاسعة من الأرض ، وتخريب الجسور المقامة على كثير من جداول الري . على ان مقدمة جيشنا وصلت ضواحي بغداد في ٣٠ مايس ومع ان جيشنا كان ضعيفاً من الوجهة العددية ، وان المدينة كانت فيها فرقة من الجيش العراقي فان وصوله الى تلك الضواحي كان اكثر مما يتحمله رشيد عالي ورفقاؤه الذين فروا في ذلك اليوم الى ايران يصحبهم مشاغبون آخرون والوزيران الألماني والايطالي ومفتي القدس . وفي اليوم التالي ، ٣١ مايس ، عقدت الهدنة ، واعيد وصي العراق الى منصبه ، ثم تسلمت مقاليد الحكم حكومة جديدة . وقد بادرنا في الحال الى احتلال جميع المراكز المهمة في البلاد بالقوات البرية والجوية .

وعلى هذه الشاكلة أحبطت خطة الألمان التي وضعوها لايقاد نار الثورة في العراق والسيطرة بثمن بخس على هذه الأصقاع الوسيعة إحباطاً كان بينه و بين نجاح الخطة وقت ضيق . حيث ان انزال اللواء الهندي في البصرة يوم ١٨ نيسان جاء في وقت مناسب . لأن ذلك أجبر رشيد عالي على العمل من دون ان تنضج خطته . ومع هذا فقد كانت قواتنا الشحيحة تتسابق مع الزمن . وقد كان الدفاع الرائع الذي دافعت به مدرسة التدريب الجوي في الحبانية العامل الرئيسي في نجاحنا . وكان تحت تصرف الألمان بلا ريب قوة نقلت عن طريق الجو كان يمكن ان تنتزع لهم في مثل هذا الوقت سوريا والعراق وايران مع حقول النفط الثمينة الموجودة في هذه

البلاد . وربما كانت يد هتلر قد وصلت لمسافة بعيدة جداً نحو الهند ، داعية اليابان للاتصال . على انه قد اختار ، كما سنرى قريباً ، ان يستخدم قوته الجوية الرئيسيةفي اتجاه آخر . فاننا كثيراً ما نسمع ان الخبراء العسكريين تنطبع في ذهنهم عقيدة اعطاء الارجحية الى الميدان الحاسم . ان هناك كثيراً من الصحة في هذا القول . لكن هذه القاعدة في الحرب ، مثل غيرها من القواعد ، تتوقف على كثير من الحقائق والظروف ، والا كان فن سوق الجيوش سهلاً اكثر مما يجب . حيث انه يصبح كتاباً للتدريب لا فناً خاصاً ، فيعتمد على القواعد والقوانين وليس على قوة التمييز والحكم على أهمية الميادين الحربية المتبدلة على الدوام . وقد نبذ هتلر على وجه التأكيد فرصة الحصول على غنيمة عظيمة بثمن بخس في الشرق الأوسط . اما نحن في بريطانيا فقد دبرنا ، برغم الضغط المتناهي الواقع علينا ، ان ننقذ انفسنا بقوات شحيحة من ضرر مستديم بعيد الأثر

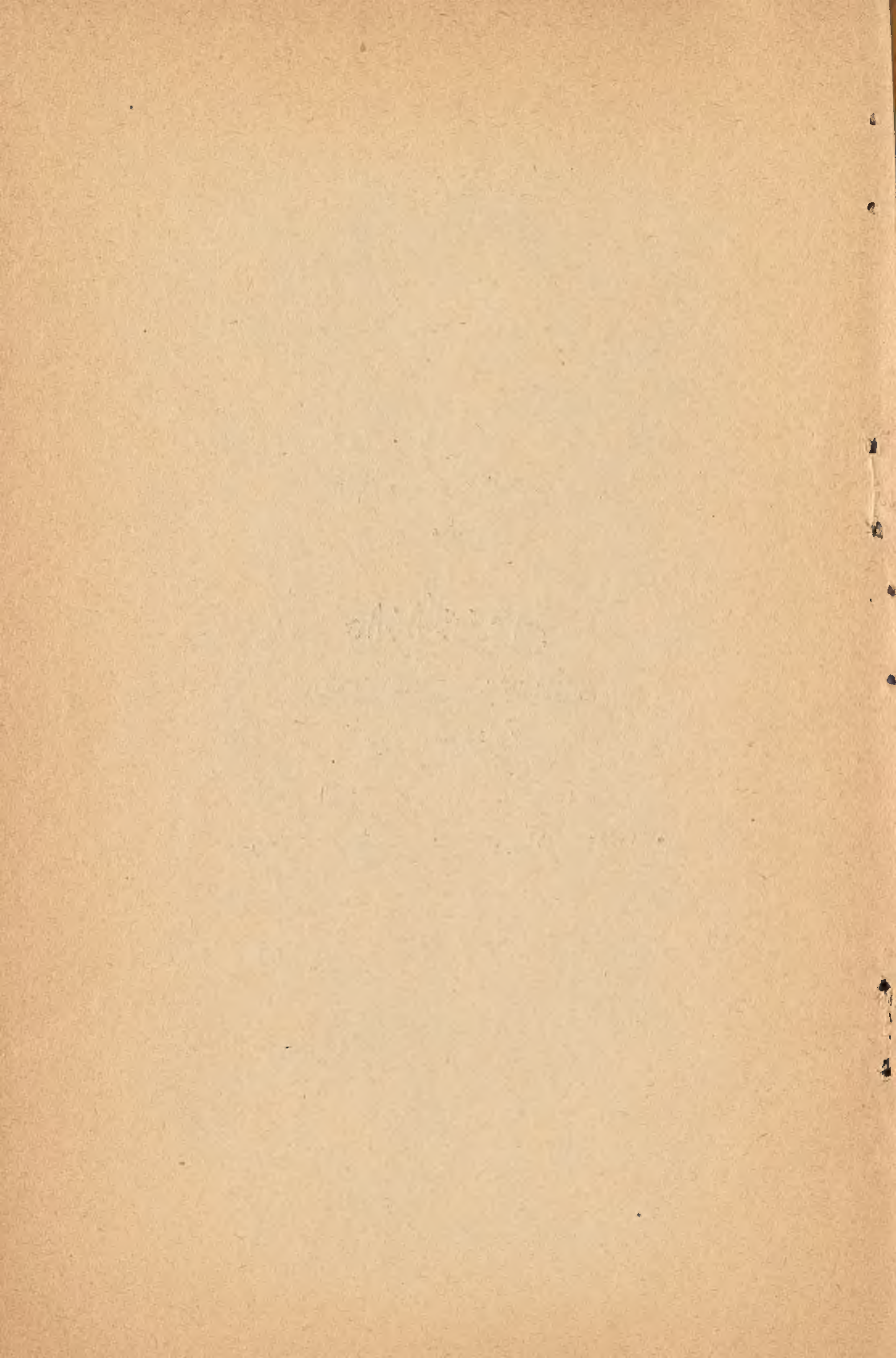
ويجب ان لا يغرب عن البال أن الثورة في العراق لم تكن سوى قطاع صغير واحد من الأزمات الجسيمة التي كانت تحيط بالجنرال ويفل في الشرق الاوسط من جميع الجهات في نفس الوقت . وكانت تتألف من الهجوم الالماني الذي كان يوشك ان ينقض على كريت ، ومن خططنا التيوضعناها لمهاجمة روميلفي الصحراءالغربية، والحملات الموجهة في الحبشة واريتريا والحاجة الملحة لاعاقة تركز الالمان في سوريا . ولم يكن المسرح الحربي في الشرق الأوسط كله ، في نظر الداوئر المختصة في لندن ، سوي جزء ثانوي من مشكلتنا العالمية التي كان فيها خطر احتلال الألمان لبريطانيا ، وحرب الغواصات ، وموقف اليابان الملامح البارزة فيها . ولم يتسن لنا التغلب على هذه المحن والمخاطر ، برغم ما أصابنا من الأذى الشديد الا بقوة الانسجام التي كانت موجودة بين أعضاء وزارة الحرب وعلاقات الاحترام المتبادل ووحدة الاتجاه بين

أقطاب السياسة والقادة العسكريين و بسهولة اشتغال ماكنتنا الحربية .

ولا بد ان القاريء قد أحس بالتوتر الذي نشأ بين وزارة الحرب البريطانية ورؤساء اركان الحرب مع القائد العام في القاهرة المجهد الى ما فوق طاقته والذي كان يكافح ببسالة ، حيث ان السلطات الموجودة في لندن ، التي كنت اترأسها ، كانت ترفض مباشرة الآراءالتي كان يتقدم بها الرجل الموجود في الميدان . وقد انتزعوا المسؤولية منه فاضطلعوا بها هم أنفسهم باصدار الأوامر اللازمة لانجاد الحبانيةو برفض كل رأي يقضي بمفاوضة رشيد عالي أو بقبول توسط تركيا الذي ذكر مرة من المرات .غير ان النتيجة كانت قد توّجت بالنجاح التام الخاطف . ومع ان ذلك النجاح لم يفرح به شخص اكثر مما فرح به وارتاح اليه و يفل نفسه ، فان الحادث لم يمر من دون ان يترك بعض الانطباعات في ذهنه هو واذهاننا نحن . وفي الوقت نفسه كان موقف الجنرال اوكينليك المشجع في تلبية طلبنا بارسال فرقة من الجيش الهندي الى البصرة بمثل تلك السرعة ، و بموافقة نائب الملك في الهند الصميمية ، قد جعل النشاط يدب في اذهاننا وأجسامنا . وسوف تنكشف عواقب تلك الانطباعات كلما تقدم سرد القصة .



فهرس الكتاب



انتهى طبع هذا الكتاب
على مطابع

دار الكشاف
للنشر والطباعة والتوزيع
بيروت - لبنان

في العاشر من رجب سنة ١٣٧٣ هـ
الموافق في الخامس عشر من آذار ١٩٥٤ م





مطابع دار الكشاف - بيروت